القسم الثاني

ملثّمون وسودان وتُجّار

- ٤ -

دخول الإسلام (٧٠٠م-٨٠٠م)

«وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ البَدو»

قرآن كريم

بعيدًا عن الصحراء الإفريقية، إلىٰ جهة الشرق، في الجزيرة العربية، وُلد الإسلام في ظروف شبيهة بظروف «موريتانيا» القرن السابع مناخيًا واجتماعيًا (جو صحراوي تتاخمه وتتخلّله خضرة هامشية، ووجود مجتمع قبائلي يعتمدُ علىٰ الترحّل والغزوات في حالة البداوة أو علىٰ التجارة في حالة الإقامة) وشبيهة بها تاريخيًا، حيث في المشرق أدّىٰ انهيار الحضارة الزراعية بعد انهيار نظام السدود في الجنوب إلىٰ هجرات للقبائل العربية إلىٰ شمال الجزيرة حيث باشرت نمطَ حياةٍ مختلفًا معتمدًا علىٰ الترحّل البدوي أو الاستقرار التجاري والزراعي. في سنِّ الأربعين في مكة بدأ محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) يتلقّىٰ الوحي الذي أسّسَ لدينٍ يهدف لجمع الناس تحت كلمة سواء، هي توحيد الله والإقرار برسالة نبيه إلىٰ البشر أجمعين، إضافة إلىٰ تأسيسه لنظام توحيدي بقوانين أكثرَ رحمة ووئامًا من النظام السابق، الجاهِلي. ابتداءً من عام ٦٣٢، شرع النبي ﷺ في بناء نظامٍ مختلفٍ شيئًا فشيئًا عن نظام المجتمع القائم، الذي بدأ يقاومه ويضطهده مما اضطرّه للهجرة إلىٰ مجتمع مزارع حارب منه المجتمع التجاري واستنزَفه، قبل أن يوحِّد القبائل العربية المؤمنة في ثقافة وتنظيم جديد. وبعد أكثر من عشر سنوات من الصراع مع القرشيين استطاع المسلمون الغلبة وتأسيس نواة

دولة مسلمة. بعد وفاة النبي ﷺ، وبعد حرب أهلية وجيزة، حمل الخلفاء المسلمون عبء نشر كلمة «لا إله إلا الله؛ محمد رسول الله» إلىٰ العالم من حولهم، وخصوصًا في المناطق التي تعلّقَ بها العرب تجارةً وتبادلًا في الشام والرافدين. وسرعان ما وُلدت مع هذا حركة فتوحات استطاعت في فترة سنوات وجيزة إنهاء الإمبراطورية الساسانية، وإبعاد بيزنطة عن «الشرق الأوسط» حتىٰ حدود القسطنطينية. وعلىٰ مدىٰ قرون عديدة قادمة سيبقىٰ الإسلام هو المحرك الأساسي للتاريخ العالمي.

كانت المنطقة المغاربية جزءًا أساسيًا من عملية التمدّد هذه، وكان الاهتمام الإسلامي بالمجال الصحراوي جزءًا لاحقًا من اهتمامه بشمال إفريقية. ولكنه لن يتفتّق إلاّ بعد موجة الفتوحات الأولىٰ في الفترة العمرية. في عهد عمر بن الخطاب قدم وفد من البربر إلىٰ الخليفة المسلم وعبّروا عن رغبتهم في الإسلام وعرفوا أنفسهم بالأمازيغ(١). استقبل ابن الخطاب البربر لكنه حرّم علىٰ جنده الابتعاد إلىٰ ما وراء طرابلس. وفي عام ٢٢ للهجرة- ٦٤٤م، توفيّ مقتولًا علىٰ يد غلام أجير ممتعض. وفي فترة الخليفة عثمان زال الحاجز الطرابلسي وأرسل الخليفة قائده عبد الله بن أبي سرح لفتح ما وراء ليبيا، وأرسل الأخيرُ بدوره قوادًا لفتح إفريقية وما وراءها من بينهم عبد الله بن سعد وعبد الله بن الزبير الذي هزم جيشًا روميًا في تونس الحالية في عام ٦٤٧م وقتل قائده جرجير؛ وكان ذلك بداية كسر السلطان الروماني في شمال إفريقية. وكان من معاني هذا النصر الذي أقصىٰ الرومان إعادة تمكين البربر من التحكم في مصيرهم مقابل جزية يعطونها للمسلمين. وكان بإمكان المسلمين مضاعفة هذا الجهد في السنوات اللاحقة لولا أن حربًا أهليةً قوية -هي «**الفتنة الكبرىٰ**» (٦٥١-٦٦١)- أوقفت التمدد لسنوات. بعد توقفٍ قصيرٍ انتصر خيار المملكة السلالية في الإسلام في عام ٦٦١ علىٰ خيار الراشدية، الأكثر طوباوية، وبدأت مسيرة الفتوحات في الانطلاق من جديد.

---

(١) عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية حتىٰ ١٩٦٢، الجزائر: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧، ص ٨.

رجع عبد الله بن الزبير والقادة الفاتحون إلىٰ المركز الإسلامي، حيث نافسوا علىٰ الملك غير أن الجند الذين خلّفوا ولاحقوهم من الأهالي الباحثين عن الحظوظ والمجد والجهاد بقوا. وفي شمال إفريقيا وجد المسلمون أمامهم وضعًا معقّدًا. لم يكن البيزنطيون مسيطِرين بشكل مطلق علىٰ المجال، بل بدا أنهم كانوا في وضع شبيه بالشمال المغربي قبل فترة انحدار البربر إلىٰ الجنوب. كانوا يسيطرون فقط علىٰ الشمال من بلدان المغرب العربي الحالية، أما في الجنوب فقد سيطر البربر الذين كانت تتقاسمهم الولاءات والنزاعات والتأثير الأجنبي الروماني كما حدَثَ لهم منذ أيام القرطاجيين والفينيقيين والليبيين. بعضهم كان تحت النفوذ القرطاجي، كما كان حال بربر إفريقية، وكان بعضهم تحت النفوذ المطلق للرومان، كما كان حال بربر الشمال الجزائري وبعض من الشمال المغربي، أما في الجنوب في السهول والصحاري فكان البربر قد ارتهنوا بالأهواء والنزاعات القبلية والقواد المحليين.

في الوقت الذي قدم فيه الإسلام للمنطقة المغاربية كان غالبية البربر يعيشون في السهول، رعاةً ومزارعين، ولم يحتكّوا كثيرًا بالرومان. ورغم أن الرومان قد شيّدوا أبنية ومدنًا محصّنة في المنطقة، إلا أنه يبدو أنهم عاشوا منعزلين ولم يؤثّروا بشكلٍ عميق، وإن أثّروا سطحيًا وربّما ظرفيًا فقط، في تقاليد البربر. ويبدو أن هذا كان حالهم في كثيرٍ من الأمكنة التي احتلّوها لقرون طويلة في بريطانيا الحالية وبشكلٍ أقّل في مصر وسوريا. أما نخب البربر التي تأثّرت وعاشت مع النخبة الرومانية فكانت صغيرة هي الأخرىٰ، ولم تؤثِّر في عموم ثقافة البربر في المجال[١]. ولهذه الأسباب كان نفوذ البربر الشعبي وطبقاتهم المسحوقة يزداد في المنطقة بشكل قويٍّ تلازمًا مع انحسار التأثير الروماني بعد غزو الوندال لهم في الشمال.

هكذا جاء الإسلام إلىٰ المغرب الكبير في فترة بدأ فيها البربر في استعادة الثقة

---

(1) Roger Le Tourneau. "North Africa to the Sixteenth Century," *In* Pter Holt et al. *The Cambridge History of Islam: The Indian Subcontinent South east Asia, Africa and the Muslim West.* Vol 2A. Cambridge: Cambridge University Press,i 1970, 211-238.

في أنفسهم وفي الاستعداد لاستلام السلطات في ظل تهاوي السلطة القائمة، ولقد أعطت الانتصارات الإسلامية الخاطفة انطباعًا بإمكانية قهر المحتل، وولّدت رغبات بالسيادة من قبل البربر الشعبيين. غير أن نخبة البربر المرتبطة مصلحيًا مع الرومان تحالفت طبيعيًا معهم، واستمرّ الحلف لخمسين عامًا بعد كسر الرومان من قبل المسلمين في سبيطلة، حيث تشكّلت نواة عسكرية قوية من هذا الحلف مركزها قرطاجة التونسية. ويمكن النظر إلىٰ هذا الحلف باعتباره مقاومة الإقطاعية الحاكمة للغزو الإسلامي ونجاحها لفترة في تنظيم صفوفها. وفي الحقيقة، فإن فترة فتور -وربما فراغ سياسي- أعقبت انتصار سبيطلة، ولم يقم المسلمون إلا بغزوتين خاطفتين لأفريقية حتىٰ العهد الأموي.

كان الأمويون إمبراطورية جباية وتغريم، فلم يكتفوا بالغزوات والأسلاب بل أرادوا تعميم نموذجهم وبسط سلطتهم المغارمية في كل أرجاء الإمبراطورية. بعد ثلاث سنوات من إرساء نفوذِهم علىٰ كلِّ التراب الإسلامي بشكلٍ مطلق، وتحديدًا في عام ٤٣هـ/ ٦٦٣-٦٦٤م، انطلق قائد مسلمٍ إلىٰ الغرب الإفريقي لفتحه وأسلمته واستدرارِ خراجه. فتوجّه بجيش مجاهدٍ كبير إلىٰ إفريقية، حيث شيّد معسكرًا حربيًا كان نواة لمدينة عسكرية سمّاها القيروان. كان اسمه عقبة بن نافع الفهري، وسيرتبط اسمه بعد ذلك بكثيرٍ من الروايات الموريتانية والمغاربية والإفريقية. ورغم حضوره الخلاّق، إلا أن الغموض ينتاب جوانبَ كثيرة من شخصيته، وباستثناء أنه كان فاتحًا فإن التاريخ لا يحدِّد كثيرًا من ملامح شخصيته. ومن خلال التفاصيل القليلة التي قدمت عنه، فإن كل مؤرخ أو مجموعة بَنت انطباعها الخاص عنه: أحيانا يَبدو فاتحًا مؤمنًا طهريًا؛ وأحيانًا يبدو رجل سيف قاسيًا؛ وأحيانًا هو وليٌّ صالح وأب لعلماء الصحراء والسودان. من الواضح أنّه كان كاريزميًا.

بعد القيروان انطلق عقبة في مسيرة فاتحة علىٰ أظهر الخيل غربًا باتجاه المغرب في أوّل احتكاك إسلامي بهذه البقعة. بعد أكثر من عشرين عامًا من وفاة معاوية بن أبي سفيان وصل عقبة بن نافع إلىٰ المحيط الأطلسي، ووقف هنالك علىٰ صهوة جواده مُشهدًا الله أنه لو علم بعدوٍّ له خلف البحر لخاض إليه. وحسب

ابن عبد الحكم (٢٠٣-٨٧٠م) فقد أرسل جيشًا استكشافيًا إلىٰ الجنوب، إلىٰ موريتانيا الحالية وإلىٰ إفريقيا في الجنوب[١]. وفي عام ٦٨٢م وصلت جيوشه إلىٰ الجنوب المغربي في السوس الأقصىٰ في الجنوب المغربي. وربما نجحت قواته في طرد مؤقت لبعض أعدائهم الصنهاجيين في جنوب المغرب وإبعادهم إلىٰ الصحراء. وبالنسبة إلىٰ الكثيرين، وخصوصًا الرواة العرب في الأصقاع المشرقية وبعض مستشرقي القرن التاسع عشر، فإن الفتح الإسلامي توقّف هنا، وعاد الفاتحون العرب إلىٰ أرضهم بعد انتهاءِ حملة عقبة الثانية[٢]. غير أن التقاليد الصحراوية لا تُسلِّمُ بهذه القطيعة وترىٰ -لأسباب أيديولوجية وروائية- علاقات أدوم مع الفتوحات الإسلامية. فمع أواخر العام ٧٢٠ استطاع العرب المسلمون أسلمة وتأمين المغرب الشمالي، وهي عملية يعتقد المستشرق الكبير تاديز لفيسكي (١٩٠٢-١٩٩٢) أنها وافت ختامها ما بين العامين ٧١٨-٧٢٠[٣]. ومع هذا الانتصار الخاطف بدأت تحديات جديدة تظهر في الجنوب، حيث بقيت القبائل البربرية غير خاضعة للدين الجديد وأصبحت تهدِّد الاستقرار الجديد، وهو خطر استراتيجي تزايد حتىٰ في فترة ما بعد عقبة (التي تعتقد بعض تواريخ الصحراء أنها فترة أسلمة مطلقة)، واستدعىٰ ردًا من الفتوحات الإسلامية.

ويجب أن نتوقّفَ هنا قليلًا ونذكّر بوضعية الصحراء، حيث كانت القبائل الصنهاجية قد انتشرت وسادت وكانت أغلبيتها تعيش مرتحلة خلف الكلأ والمرعىٰ، معتمدةً علىٰ الإقامة الموسمية والظعن الدائم. غير أن البربر، وخصوصًا الزناتيين، بنوا بعض الحواضر القليلة في الشمال الصحراوي الذي أصبح بمرور الوقت مرتكزًا تجاريًا وسياسيًا كما أنه أصبح مركز ربط التجارة بين المغرب والسودان[٤]. فكانت الصحراء، علاوةً علىٰ وضعيتها الثغورية- وبالتالي

---

(١) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الحكم، فتوح مصر وأخبارها، تقديم محمد صبيح، القاهرة: مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، ١٩٦٨، ص ١٣٤.

(2) Alferd Le Chatelier. *L'Islam dans L'Afrique occidentale*. Paris: G. Steinheil, Editeur, 1899, 39.

(3) Tadeusz Lewicki. Les origines de l'Islam dans les tribus berbères du Sahara occidental: Musa ibn Nu?ayr et'Ubayd Allah ibn al-?ab?ab, Studia Islamica, No. 32(1970), pp. 203-214.

(٤) نفسه.

الأمنية- مطمعًا تجاريًا. وربما في هذه الفترة بُنِيَت حاضرة أزوكَي في آدرار (علىٰ بعد ١٠ كيلومترات من مدينة أطار الحالية) التي تنسب التقاليد الشفهية بناءها إلىٰ البافور، مع أن الرحالة العرب لا يتحدّثون عن أيّ وجود لها قبل القرن الحادي عشر، إلاّ أن ثمّة أسبابًا مهمة تجعل المؤرخين يرون أنها نشأت قبل ذلك. وربما كانت مركَز توطد لقبيلة لمتونة التي كانت تشكل مركز اتحاد قبائل صنهاجة الذي أشار إليه ابن خلدون، والذي سيستمر حتىٰ بداية القرن العاشر[١]. يبدو أن هذه القبائل الصنهاجية أصبحت تشكل خطرًا علىٰ الفاتحين العرب. وهكذا قرّر عقبة بن نافع التصدي لها؛ فهاجم أولًا قبيلة مسوفة وأَسَرَ منهم ثم عاد أدراجه، حسب ابن خلدون[٢].

إن قصة عقبة بن نافع قصة مهمة في الصحراء؛ إذ تذهب روايات تراثية عدة إلىٰ أنه لم يتوقّف عند المغرب الحالي، بل إلىٰ أنه انحدر إلىٰ الجنوب باتجاه المجال الصحراوي. إلا أن الأمر موضع شك، ومن الأرجح أنه أسطورة[٣]. ولكنها أسطورة تأسيسية، ولعبت أدوارًا في فلكلور الصحراء. ولا شك أن لها أصلًا من نوعٍ ما. فبرغم صعوبة تصور فتح قام به عقبة بن نافع للصحراء، إلا أنه من المحتملٍ أن يكون قد بعث إليها بسرايا[٤]، بغض النظر عن تأثير هذه السرايا. ويذهب مؤيدو رواية «الفتح الإسلامي للصحراء» إلىٰ أن القائد العربي حارب هنالك القبائل الصنهاجية التي كانت تهيم في الصحراء، بحيث إنه وصل إلىٰ «التخوم الشمالية لصنهاجة اللثام»[٥]. ويقدِّم ابن خلدون تفاصيل في عملية توسُّعِ عقبة بن نافع، ولكن روايته لا توصله إلىٰ عمق الصحراء أو إلىٰ السودان، بل تتحدّث عن جوهر معاركه ضد الصنهاجيين في بلاد السوس، وعن حروبه مع المسوفيِّين فيما وراء ذلك. وتُشير روايته إلىٰ أن القبائل الصنهاجية كانت تدين

---

(١) نفسه، ص ٢٠٨.

(٢) ابن خلدون، ج٦ ص ١٨١.

(٣) العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص ١٢٣.

(٤) نفسه.

(٥) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٣٣-٣٤.

بالمجوسية[1]، وربما عنىٰ بذلك الدين الأرواحي البربري. ويبدو -حسبه- أن عقبة تجاوز الأنباط/البربر إلىٰ الجنوب، حيث هزم قبيلة مسوفة هزائم كبيرة، وهي -كما نعلم- كانت تنتشر في الشمال الموريتاني الصحراوي لدىٰ التوزع البربري في المجال الصحراوي. ويستطرد ابن خلدون:

ثم أجاز إلىٰ بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ علىٰ دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية، فأثخن فيهم وانتهىٰ إلىٰ تارودانت وهزم جموع البربر وقاتل مسوفة من وراء السوس وسبىٰ منهم وقفل راجعًا[2].

ولقد أورد ابن عبد الحكم في وقتٍ مبكِّر معلومات سريعة عن هذه الغزوة. وتكمن أهمية روايته في أنها توصِلُ عقبة إلىٰ الصحراء، ما لا يبدو أن ابن خلدون -اللاحق له بقرون ولكن الأدرىٰ بتاريخ المنطقة- قد أخذ به. وحسبه، فإن حملة عقبة فتحت نواحي ليبيا وتونس والجزائر وذلك قبل أن يتمّ عزله لفترة وجيزة. وفي فترة إعادة توليته غزا جنوب السوس في بلاد أنبية، «فجوّل في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله»[3]. ونعرف -كما سنعرض لذلك- أن «أنبية» هي شمال موريتانيا الحالية. وتفصِّل هذه الرواية انطلاق عقبة في عام ٦٦٦م من ودان باتجاه مناطق السود (الكور) غازيًا بأربعمائة حصان وأربعمائة جمل وأربعمائة مزود. أما التقاليد الشفهية في موريتانيا والسودان في الجنوب، فتذهب بعقبة إلىٰ أبعد مما أخذه ابن خلدون وابن عبد الحكم، اللذان بلغ بالنسبة إليهما حدود أو شمال الصحراء (علىٰ أقصىٰ تأويل)؛ إذْ يتوطّدُ عندهما أن جيش عقبة لم يصل فقط إلىٰ عتاب الصّحراء وإنما وصل إلىٰ تخوم السودان الإفريقي. وتربط قبائل السودان من الفلان سبب تواجدها في السودان الإفريقي بابن نافع الذي يذهبون إلىٰ أنه من أتىٰ بهم من الشمال الشرقي إلىٰ الجنوب. وتنسب التقاليد الشفهية

---

(١) ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٨.

(٢) ابن خلدون، ج٦ ص ١٠٨.

(٣) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الحكم، فتوح مصر وأخبارها، تقديم محمد صبيح، ص ١٣٤.

لقبيلة كِنْتَة البيضانية -المممتدة من المغرب والجزائر وموريتانيا إلىٰ مالي والنيجر- أصلها إلىٰ ابن نافع أيضًا متلاقية مع التراث المحكي للفُلاّن في أنه وصل للجنوب، حيث يقول سيدي محمد الخليفة الكنتي (ت ١٨٢٦) إن عقبة فتح بلاد البيرو (ولاتة) والتكرور «مدينةً مدينة وقريةً قرية»، ووصلت جيوشه «حتىٰ برك الغماد» في نيجيريا الحالية[١].

ولا يتعلّقُ الأمر فقط بأسطرة وحكايات مؤسِّسَة لمجموعة واحدة[٢]، بل إنها أيضًا تسلّلت جنوبًا حيث بقيت جماعات وَلْفِية وتكرورية تنتسب إلىٰ عقبة. ومن المهم أن نشير إلىٰ أصول هذه التصور في التراث العربي القديم الذي يتحدّث أيضًا عن استمرار الغزوات من السوس إلىٰ تخوم السودان بقيادة أبناء عقبة بن نافع، بل إن بعض هذه الآثار يشبه الأساطير، خصوصًا ما ذكره البلاذري (ت ٨٩٢م) من أن أحد أبناءِ عقبة أتىٰ معه بأسيرتَيْنِ سودانيتَيْن لكلِّ واحدة منهما ثديٌّ واحد:

ثم ولّىٰ هشام بن عبد الملك بشرَ بن صفوان أيضًا فتوفيّ بالقيروان سنة ١٠٩، فولّىٰ مكانه عبيدة بن عبد الرحمن القيسي، ثمّ استعمل بعده عبد الله بن الحباب مولىٰ بني سلول، فأغزىٰ عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري السوس وأرض السودان فظفر ظفرًا لم يرَ أحدٌ مثله قط، وأصاب جاريّتَيْن من نساء ما هناك ليس للمرأة منهن إلا ثديٌّ واحد وهم يُسمَّوْنَ «تراجان»[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي، الرسالة الغلاوية، في: سلسلة نصوص ووثائق: الرسالة الغلاوية، تأليف الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي؛ ورسالة في نسب إيدولحاج، تأليف عبد الله بن سيدي محمود الحاجي، تحقيق حماه الله ولد السالم، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ٢٠٠٣، ص ١٣٩-١٤١.

(2) Thomas Whitcomb, "New Evidence on the Origins of the Kunta," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, University of London, Vol. 38,No. 1(1975), pp. 103-123

(٣) أبو العباس أحمد بن يحيىٰ بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، بيروت لبنان: دار المعارف، ١٩٨٧، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ص ٢٢٤.

في الشمال المغاربي في غياب عقبة بدأت تطوّرات مهمة في الحدوث. في غياب الرومان بدأت قبائل البربر في احتكاكٍ مباشر مع الذين تولّوا بعدهم: الفاتحون العرب. كان القائد البربري الأكثر قوة في ذلك الوقت هو شخصية يلفّها الغموض أيضًا: زعيم قبلي واسع النفوذ اسمه كسيلة (٦٤٠-٦٨٦)، وقد استعداه التوسع العربي وبدأ في استنفار قبائل البربر في التصدي للغزاة العرب. في عام ٦٨٢، وبعد أشهر من وصول عقبة إلىٰ المحيط نظّم كسيلة جنوده واستطاع مفاجأة جيش عقبة في إفريقية عند سيدي عقبة ببسكرة الجزائرية الحالية. هنالك استطاع هزيمة الجيش العربي وقتل قائده الذي دُفن في أرض المعركة التي ستتحوّل إلىٰ مزار في القرون اللاحقة.

بعد نهاية عقبة وكسيلة ظهرت قيادية أسطورية يذكرها التاريخ باسم الكاهنة ديهيا (ت . ح. ٧١٢م)، التي يلمِّح ابن خلدون إلىٰ كونها كانت يهودية، جمعت قوىٰ البربر ضد المسلمين قبل أن تتمّ هزيمتها بعد استيلاء الجيوش المسلمة علىٰ قرطاجة في عام ٧٦هـ-٦٩٨م. وكانت نهاية الكاهنة، كما حياتها، فرصة لتطوّرات درامية. توقّفَ عداء البربر ومقاومتهم للإسلام، وبدأت القبائل في الدخول أفواجًا في الدين القادم من الشرق. في الشرق باتجاه إفريقية إلىٰ المغرب تصادف هذا التحوُّل مع دخول موسىٰ بن نصير (٦٤٠-٧١٦)، الذي شرع في حملة أسلمة المغرب[١]. أما في المجال الصحراوي فيُخمِّنُ البعض أن موجة من دخول البربر في الإسلام قد أعقبت الغزوات الإسلامية مباشرة، وذلك من أجل إبعاد أي حجة لغزوهم من قبل المسلمين[٢]. إلاّ أن الأرجح أن عملية الأسلمة تمّت في إطار اقتصادي وحِراك ثقافي متعلِّق بالدعوة المرافقة للتجارة، وهو ما يفسِّر تباطؤ انتشار الإسلام في الصحراء.

❋ ❋ ❋

مع استقرار الإسلام في الشمال الإفريقي بصفة نهائية بدأت الحياة المدنية في المغرب في الازدهار؛ إذ كان صنهاجة الشمال أصلًا قومًا متمدِّنين وصفهم

(1) Roger Le Tourneau. North Africa to the Sixteenth Century, 214

(٢) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٣٧.

ابن خلدون بأنهم **أهل مدر**، بعكس صنهاجة الجنوب الذين كانوا **أهل وبر**(١). في منتصف القرن الثامن الميلادي بنىٰ المسلمون سجلماسة في الجنوب المغربي، لتصبح بذلك مركزًا تجاريًا مهمًا وتقضي علىٰ المراكز التجارية التي سبقتها. أصبحت القوافل التجارية القادمة ذهابًا وإيابًا من الشمال إلىٰ الجنوب مرورًا بالصحراء (موريتانيا) إلىٰ السودان، تعبُرُ شبكة من الآبار تمرُّ بغانة إلىٰ أوداغست في الجنوب الشرقي الموريتاني (قرب تامشكط في الحوض الغربي) إلىٰ إيغلي في الجنوب المغربي إلىٰ السوس الأقصىٰ ثم إلىٰ تاهرت والقيروان. وربما كان ازدهار التجارة هذا أحد أهم عوامل انتشار الإسلام في الجنوب.

مع العام ٧٣٤ أصبح ممكنًا الحديث عن توطُّدِ الفتح العربي للمغرب. ومباشرة بعده بدأ العرب في توجيه غزواتٍ متلاحقة وسريعة لاتحاد قبائل البربر المتواجِدة في موريتانيا. في هذا العام أصبح عبيد الله بن حبيب بن عقبة بن نافع قائدًا للجيش العربي واليًا علىٰ المنطقة، وأرسل قواته إلىٰ مسوفة، القبيلة الصحراوية الصنهاجية، لمهاجمتهم وغنم منهم وأَسَرَ كما فعل جدّه عقبة بن نافع(٢). كانت مسوفة قبيلة مهمة في المجال الصحراوي، وقد امتدّ نفوذها إلىٰ الشرق حيث كانت تتبع لها تغازة الواقعة في مالي الحالية والغنية آنذاك بالملح(٣). بعد عودته من غزوته ضد مسوفة قام عبيد الله بن حبيب بتعيين ابنه إسماعيل أميرًا علىٰ السوس الأقصىٰ، وواصل هذا الهجومَ علىٰ البربر البدو في الصحراء الغربية(٤).

ومن الواضح أن الأمر يتعلّق بتعميق الغزوات العقبية الأولىٰ. وربما أصبحت هذه الغزوات مشروعًا مُغريًا، وهو ما يفسّر تتابعه بشكل مطرد بحيث إن قائدًا عربيًا -هو المشتري بن الأسود- غزىٰ الصحراء عشرين غزوة وصل فيها حتىٰ نهر السنغال كما وصل حبيب بن عبيدة إلىٰ عمق الجنوب في أوداغست وعاد منها محملًا بالذهب والغنائم. وقد وصل هذا القائد حتىٰ أنبية، التي يحددها الفزاري

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٥٢.

(٢) أبو العباس أحمد بن يحيىٰ بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، بيروت لبنان: دار المعارف، ١٩٨٧، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ص ٢٢٤.

(3) Lewicki. *Les origins*, 209

(٤) نفسه، ص ٢٠٩.

(ح. ٧٨٨)، كما نقلها عنه المسعودي (ت ٩٥٦)، بأنها الأراضي الواقعة بين سجلماسة ومملكة غانا. أما ابن الفقيه الهمذاني مؤلِّف **كتاب الجغرافية** -وهو جغرافيٌ في بداية القرن العاشر- فيحدِّدها في مسيرة سبعين ليلة في الصحراء. وبالنسبة إلىٰ اليعقوبي (نهاية القرن التاسع) فإنها هي أرض صنهاجة من سجلماسة إلىٰ غسط (أوداغست).

رغم كثافة الغزوات العربية ضد البربر في المجال الموريتاني، إلا أنها لم تكن حربًا طويلة. فلم يكن البربر الصحراويون في هذه الفترة غير بدوٍ مسالمين ولم توجد لديهم سلطة قوية مركزية باستثناء بعض الأمراء الصغار، بحيث إن ابن خلدون أشار إلىٰ توسّع الفاتحين العرب إلىٰ المناطق الغربية من بلاد السودان ولم يجدوا سلطانًا أعزّ من الغانا أو ملك الممالك السودانية(١).

لا ينطبق سيناريو الأسلمة بالقوة وبالفتوحات علىٰ الصحراء كما انطبق علىٰ مناطق في جنوب الصحراء الإفريقية، خصوصًا أثيوبيا ومنطقة التشاد. وفي المقابل من الأرجح أن الأسلمة سرَتْ علىٰ مدىٰ عقود طويلة، وربما قرون، بفعل القادمين من الشمال، عربًا وبربرًا، الذين أسلموا مجال قبيلة لمتونة بحوالي منتصف القرن الثامن الميلادي قبل أن تدخل قبيلتا جدالة (أگدالة) ومسوفة في الدعوة الجديدة حثيثًا(٢). ومن الواضح تمامًا أن هذه الأسلمة كانت نتاج النشاط التجاري؛ إذ كان التجار القادمون من السوس الأقصىٰ باتجاه الصحراء دعاة يبشِّرون بدين جديد علىٰ الصنهاجيين.

كانت القوافل من سجلماسة والسوس تمرُّ عبر الطرق التجارية من جنوب المغرب إلىٰ عمق الصحراء باتجاه السودان. ويُعتَقدُ أن التجار المسلمين من الأصول البربرية لعبوا دورًا أساسيًا. كانت علاقاتهم مع البدو البربر عميقة؛ إذ كان هؤلاء يمدُّونَهم بالأدلاء وبالرفقة، وربما بالخفارة (حماية القوافل)، ما

---

(١) نفسه.

(2) M. El. Fasi and I. Hrbek. "The Coming of Islam and the Expansion of the Muslim Empire," *The General History of Africa: Vol III: Africa from the Seventh to the Eleventh Century*, California: James Currey, 1992, pp. 37-38.

سمح بتبادل العادات والتقاليد وإسلام العوام من الصنهاجيين بفعل هذا الاحتكاك[1]. وبفعل هذا التركيز علىٰ التجارة كانت نسبة انتشار الإسلام أكبر في الحواضر والمراكز التجارية مما كانت عليه في الربوع والوديان البدوية، حيث كانت تخفىٰ نسبة الالتقاء بالغرباء[2].

وربما بفعل هذا المسار القوافلي تباطأ انتشار الإسلام في الصحراء، وربما يعود تباطؤه إلىٰ حقيقة أن أغلب أهل الصحراء كانوا رعاة، وبالتالي كانوا بعيدين عن الاحتكاك مع الدعاة. أما المحتكون بالتجارة فقد بدأوا في الاستفادة من السلام والدين الجديد، العابر علىٰ ظهور القوافل. وبنهاية الفترة العربية قبل تغلّب الخوارج بدأت قبيلة لمتونة في الدخول أسرابًا في الإسلام، بحسب تقديرات لفيسكي[3].

ولعلّ هذا الإسلام الذي تغلغل ببطء عبر القوافل كان أولًا إسلامًا خارِجيًا، لا أرثودوكسيًا (مع أن هذه فترة لم يتبلور فيها مفهوم السنة بشكل جلي)، فقد تمّ شنّ الهجمات الإسلامية الأولىٰ في الفترة ما بين الفتح العربي النهائي للمغرب عام ٧٣٤ وبين انتفاضة الخوارج في السوس الأقصىٰ في عام ٧٤٩. ولكن في عاميْ ٧٣٩-٧٤٠ انتفض الخوارج في المغرب بقيادة ميسرة السّقاء وتمكّنوا من السيطرة علىٰ السوس الأقصىٰ. وكان ذلك إيذانًا بتراجع سطوة العرب مؤقّتًا في المنطقة؛ لأن الحكام الجدد كانوا بربرًا. في عام ٧٥٧ ستصبح سجلماسة عاصمة للخوارج الصفريين، وبعد أربعة أعوام سيتغلّب الخوارج الإباضيون علىٰ تاهرت التي ستصبح مركزًا تجاريًا مهمًا سيمتدُّ تأثيره إلىٰ الصحراء والسودان. مع تغيُّرِ السلطة المركزية في الشمال انعكس ذلك علىٰ نمط التواصل مع الصحراء وحتىٰ علىٰ نمط الدين القادم من الشمال. وابتداءً من هذه اللحظة ستبدأ عناصر من الإسلام بنسخته الخارجية في التسلّل إلىٰ الصحراء.

استغرق انتشار الاسلام، أيًا كان نوعه، في الصحراء حوالي قرن ونصف

(1) Lewicki. *Les origines*, 208, p. 213.

(٢) نفسه، ص ٢٠٨.

(3) Lewicki. *Les origines*, p. 213.

القرن. ورغم استمرار الأسلمة بشكل طردي منذ دخول عقبة، إلا أن الإسلام لن يصل إلىٰ النبلاء الصنهاجيين إلا مع مطلع الألفية الميلادية الأولىٰ. وسيكون أول أمير يدخل الإسلام هو تارسينا (أو ترشنة)، محمد بن تيفاوت، أمير لمتونة في العام ١٠٢٠. بل وتذهب تقييمات حديثة إلىٰ اعتبار أسلمة الصحراء لم تحدث بشكل مطلق إلا في منتصف القرن الحادي عشر، عند تشكل الاتحاد المرابطي[١]، وهو ما يذهب إليه لفيسكي. وفي القرن الثالث عشر اعتقد الجغرافي الأندلسي محمد بن أبي بكر الزهري أن الإسلام لم يعم في الصحراء وفي السودان (جناوة) إلا بعد إسلام سكان واحة ورغلة (ورقلان) في الجزائر في عهد هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣). وأشار الزهري (توفيّ في خمسينيات القرن الثاني عشر) إلىٰ إسلام المرابطين ويقصد بهم القبائل الصحراوية (لمتونة وجدالة ومسوفة). ولكنه أقرّ أنهم بقوا لفترة علىٰ مذهب «خرجوا به عن الشرع» (ربما يقصد إباضيّتهم أو سيادة الأنظمة العرفية المتناقضة مع الإسلام المعياري عندهم)، إلىٰ أن أسلموا في عهد المرابطين وتمكّنوا لاحقًا من أسلمة سكان جناوة الذين كانوا كفارًا قبل مقدم الأمير يحيىٰ بن إبراهيم[٢]. أما إسماعيل بن الأحمر الغرناطي (١٣٨٧-١٤٠٦) فيعتقد أن الأسلمة تمّت في عهد الإمام إدريس الكامل، مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب (٧٨٨-٧٩٣)[٣]. ولكننا نعلم أن الدِّين السيادي الشامل سيأخذُ وقتًا ليسود، حتّىٰ بعد الفترة المرابطية نفسها، التي يُنظرُ إليها أنها فترة دَولَنة وأسنَنة وتعميم الإسلام.

❁ ❁ ❁

إذا كان من أثر لحظي قدمه الإسلام في احتكاكه الأول مع الصحراء فهو لم يكن الدين فحسب؛ لأن الدين كان عملية اجتماعية طويلة الأمد، وإنما التجارة، التي وسّعتها السلطات المُسْلِمة، الواعيَة جدًا بمكاسب التجارة مع الصحراء

---

(١) نفسه، ص ٢٠٤.

(٢) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي علىٰ الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ص ١٢٥-١٢٦.

(٣) إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرىٰ، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص ٢٧.

والسودان. فقد قام الأمير عبد الرحمن بن حبيب الذي كان يحكم من مدينة إيغلي في السوس الأقصىٰ بالاهتمام بالتجارة مع البربر في الجنوب، وقام بإصلاحات مهمة في هذا المجال. بأمره أصبحت القوافل تمشي من ساحة القوافل من مدينة تامدلت (الواقعة الآن في جنوب المغرب) إلىٰ أوداغست (تغداوست في جنوب موريتانيا). كما أمر ببناء سلسلة من الآبار لتتوسط سبع عشرة مرحلة في الطريق ما بين المدينتَيْن التجاريتَيْن. وبفضل الآبار التي بناها في امتداد الصحراء أصبح ممكنًا للقوافل أن تتوقّفَ عند استراحات لتتزود بالماء. وفي القرن الحادي عشر سيتحدّث البكري عن جودة خدمات آبار عبد الرحمن الذي حفرَ بئرًا من «أربع قامات» في «حجر أدعج»، وحفر المحطة التالية لها وهي بئر من «ثلاث قامات» باسم ويطوفان، وكانت «كبيرة لا تنزف؛ ماؤُها زعاف يسهل شاربه من الناس والنعم»[١]. وكانت بالصحراء آبار أخرىٰ كأوكارتن وآزمين وأغرف ووَاران وأزجونان، ربما سبقت الأمير، وكانت تمتدّ علىٰ طول الطريق من تامدلت إلىٰ أوداغست[٢]. أسّست هذه الإصلاحات، أو جدّدَت لتجارة فعّالة في الصحراء، ومع تفاعل الرحلات إيابًا وذهابًا زادت وتيرة الدخول في الإسلام خصوصًا بعد هدوء الحملات العسكرية العربية. إلا أن مشكلة المياه ظلّت معلمًا أساسيًا في الحياة الصحراوية خصوصًا في مسافة الأربعة عشر يومًا في الصحراء العريضة التي كانت تعرف باسم نَيْسَر، والتي كان العابرون يضطرّون وهم علىٰ مشارفها إلىٰ التزود بالمياه في الأوعية للتمكن من عبورها أحياء[٣].

---

(١) أبو عبيد االله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (وهو جزءٌ من كتاب المسالك والممالك)، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ص ١٥٧.

(٢) نفسه.

(٣) أبو عبد الله الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تصحيح هنري بيريس، الجزائر، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية، ١٩٥٧، ص ٤.

- ٥ -

بلاد الملثمين (٨٠٠-١٠٥٤)

«اللثام سنّة لهم يتوارثونها خلفًا عن سلف»

ابن خَلِّكان(١)

«. . . ومثلهم مثل الطوارق الحاليين، فإنهم كانوا يضعون لثامًا جعلهم يعرفون بالملثمين، ولقد انضافت هذه الخاصية إلىٰ منظرهم المتوحش عند مجيئهم للمغرب فصاروا مَصْدَرَ ترويع»

لشاتلييه(٢)

في أواخر القرن التاسع الميلادي وتحديدًا في عام ٨٩١م كتب اليعقوبي، أحمد بن يعقوب، عن الصنهاجيين الذين كانوا يسكنون في موريتانيا الحالية أنهم قوم ملثّمون ينتشرون من جنوب السوس الأقصىٰ إلىٰ أرض السودان في امتداد خمسين مرحلة. والمرحلة هي الوحدة السفرية التي تبلغ أيامًا علىٰ ظهور الجمال. بالنسبة إلىٰ اليعقوبي كان مجموع تلك القبائل الصحراوية يُعرفُ باسم «**أنبية الصنهاجيين**»، وكان غالبهم يعيش في جفاف وفاقة مدقعة تثير السائح، الذي كان: «يلقاه قوم يقال لهم أنبية، من صنهاجة، في صحراء ليس لهم قرار. شأنهم كلّهم أن يتلثّموا بعمائمهم، سنّةٌ فيهم، ولا يلبسون قمصًا، إنما يتشحون بثيابهم،

---

(١) الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٤، ج ٢: الدولتان المرابطية والموحدية، ص ٣.

(2) Le Chatelier, p, 43.

ومعاشهم من الإبل، ليس لهم زَرْع، ولا طعام»[1]. ومن دون أن يكون الأمر مجرّد تكرار لكلام اليعقوبي أو حتىٰ اطلاعًا عليه، فإن هذه الصورة ستصبح الصورة النمطية والسائدة عن موريتانيي هذا العصر وسيتكرّر هذا الوصف في صفحات المؤرخين والرحالة العرب والأوروبيين علىٰ مرِّ القرون اللاحقة. بعد اليعقوبي، وفي القرن العاشر، سيتغيّر اسم الصحراء من «أنبية» إلىٰ «صنهاجة»، ولكن كثيرًا من انطباعاته عن أهلها ستبقىٰ في محلها عند لاحقيه.

بعد اليعقوبي بأكثر من نصف قرن، وتحديدًا في عام ٩٥١-٥٢ وصل إلىٰ الصحراء، عابرًا إلىٰ السودان[2]، رحالة وجغرافي طموح يدعىٰ ابن حوقل. هذا الذي ولد في نُصيبِين شرق الفرات (تركيا اليوم) كان يحمل عينَيْن ثاقبتَيْن وكان رسولَ التدوين التاريخي إلىٰ المنطقة، ولقد أبقَىٰ عينَيْه وأذنَيْه مفتوحتَيْن في كلِّ مجلس. عبر ابن حوقل من طريق سجلماسة التي بناها الخوارج في العقود السابقة، وانحدَرَ منها إلىٰ أرض أنبية باتجاه المدينة التجارية في الجنوب، أوداغست. شاهدَ في طريقه في المجال الصحراوي كثيرًا من البدو الرحل في الطريق وكتب أنهم:

... غير قبيلة من قبائل البربر، متعزِّبون، لم يرَوْا قط حاضرة، ولا عرفوا غير البادية العازبة، فمن ذلك شرطة وسمسطة وبنو مسوفا [مسوفة]، قبيل عظيم من المقيمين بقلب البَر علىٰ مياه غير طائلة، لا يعرفون البُرّ ولا الشعير ولا الدقيق، وفيهم من لم يسمع بهما إلا بالمَثَل. وأقواتُهم الألبان وفي بعض الأوقات اللحم، وفيهم من الجَلَد ما ليس لغيرهم[3].

بعد ابن حوقل قدّمَ البكري (ت ١٠٩٤) انطباعًا شبيهًا. كان البكري ابن عائلة

---

(١) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان، تحقيق ويليام جوينبول، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٦٠، ص ١٥١.

(٢) يشكك نهيما لفتزيون في رحلة ابن حوقل إلىٰ السودان.

Nehemia Levtzion, "Ibn-Hawqal, the Cheque, and Awdaghost", *The Journal of African History*, Vol. 9, No. 2(1968), pp. 223-233

(٣) أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، طبعة ليدن الثانية، ١٩٢٨، ص ١٠١.

متنفذة في أندلس الأمويين، وقد استطاع النفاذ إلىٰ مكتبات قرطبة وكُتبِ الأسفاريين والأخباريين واستمَعَ للرحالة، وحصل من كل هذا علىٰ معلومات مهمّة وموثّقة عن الحياة في المغرب والصحراء وبلاد السودان. ولم يغب أسلاف الموريتانيين هؤلاء عن ذهنه وهو يهبط في مسحه الجغرافي من المغرب إلىٰ السودان، فتحدّث عن: «صحراء غير عامرة إلا بقوم ظاعنين ولا يطمئِنُّ بهم منزل، وهم بنو مسوفة من صنهاجة ليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادي درعة»[1]. واتفق مع ابن حوقل في أنهم قوم ظاعنون، بداة أقوياء، أصحاء، رغم شحِّ تغذيتهم المقتصرة علىٰ صفيف اللحم الجاف والسمن والألبان[2]. بعد أكثر من نصف قرن سنرىٰ الإدريسي (١٠٩٩-١١٦٥) يشيرُ إلىٰ أقوام الصحراء أنهم في حالة من الفاقة والصلابة وأن «ألوانهم [أصبحَت] سوداء»، «لشدّة الحرّ وإحراق الشمس لهم»، وأن «شعورهم متفلفلة»[3]. وتُتَوِّجُ خلاصة ابن خلدون في القرن الرابع عشر صورة كهذه:

> هذه الطبقة من صنهاجة هم الملَثّمون الموطّنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يُعرَفُ أوّلُها، فأصحَروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذًا عن العمران واستئناسًا بالانفراد وتوحشًا بالعزِّ عن الغلبة والقهر. فنزلوا من ريف الحبشة جوارًا، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزًا، واتخذوا اللثام خطامًا تميّزوا بشعاره بين الأمم[4].

يتضِّحُ أن مَعلَمَ هوية هؤلاء البدو الصنهاجيين كان ألثمتهم التي أثارت انتباه معظم من كتب عن الصحراء أو مرّ بها. ويبدو أن هذا الميسم تجاوز مجرد

---

(١) البكري، ص ١٤٩.

(٢) نفسه، ص ١٧٠.

(٣) الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تصحيح هنري بيرس، الجزائر: مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية بالجزائر، الجزائر، ١٩٥٧، ص ٤.

(٤) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨١.

الحاجة لمقاومة المناخ والغبار، وكان أقربَ إلىٰ التشبث الطقوسي كما اقترح بمبالغة أيتش أر بالمر[1]. ولقد وصف البكري، الذي لا تفوتُه العجائب، هذه الحالة بتفصيل؛ فنقل كيف كان يتنقّب الصحراويون حتىٰ لا تبدو منهم غير حناجر أعينهم، وكيف كان التزامهم التلثّم أبديًا لا يفصلُ حيِّز الخاص من العام ولا الحيّ من الميت، بحيث إنهم ما كانوا يُعرفون حتىٰ بين ذويهم إلا إذا خلعوا النقاب، وبحيث إن الواحد منهم كان إذا مات في معركة أعاد الناس النقاب علىٰ وجهه ليتمكّنوا من التعرّف إليه. وكانوا يسخرون من السافرين مُسمِّينهم بـ«**أفواه الذبان**»، معتبرين «الفم سَوْءة تستحقُّ الستر»[2]. ولاحقًا روىٰ شهاب الدين النويري (ت ١٢٧٩) مدىٰ أهمية تغطية الوجه عند سكان الصحراء الملثمين عندما نقَلَ أن ملثّمًا مرابطيًا شوهد في المغرب يغسل ثيابه وهو عريان علىٰ ضفة النهر، وكان يستُر فمه بيده اليمنىٰ ويغسل الثياب بيده اليسرىٰ باعتبار الفم أكثرَ استحقاقًا للستر من العورة. وعندما قيل له: «استر عورتك بيدك»، قال: «أنا ملثّمٌ بها!»[3]. وحدّثَ بأن الملثّمين كانوا يأكلون طعامهم، وهم بين ذويهم، من تحت اللثام[4] وبعد قرون سيلاحِظ زائر إيطالي في القرن الخامس عشر أنهم كانوا يبرِّرون تغطية أفواههم ببَخَرِها وروائحِها[5]. أما محمد اليدالي (ت ١٧٥٢) فقد نقل حديثًا في القرن السابع عشر يحيل إلىٰ أنهم كانوا يُصلّون بألثمتهم[6].

وعلىٰ العموم، فإن كلّ من كتب عن الصحراء في عصر الأسلمة يجمع علىٰ هذه الصورة: الصحراء موطنُ مجموعة من البدو الرعاع، الأقوياء، الملثّمين أبدًا، المنعزلين، من ملاك الإبل الأقوياء، المنتشرين في عرض المجالِ جيئةً

(1) H. R. Palmer, "The Tuareg Veil," pp. 412-418

(٢) البكري، ص ١٧٠؛ وابن حوقل، ص ١٠٢.

(٣) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤، ج ٢٤ ص ١٤٥.

(٤) نفسه.

(5) Alvise Ca'da Mosto, *Voyage en Afrique Noire d'Alvise Ca'da Mosto 1455 et 1456.* Fredricque Verrier (ed.), Chanddeigne: Unesco, 1994, 50.

(٦) الشيخ محمد اليدالي، أمر الولي ناصر الدين، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، تقديم وتحقيق محمذن ولد باباه، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، ١٩٩٠، ص ١٣٨.

وذهابًا بين وادي درعة وبلاد السودان. بيد أن جزءًا آخر من الصورة غاب عن ابن حوقل والبكري واليعقوبي وحتىٰ عن ابن خلدون: ثقافة زراعية مستقرّة من منطقة آدرار إلىٰ الجنوب علىٰ امتداد الواحات. فثمة ازدهرَ الحرّاثون من البافور والغانغارة، وهم مزارعون سود عاشوا في الفترة الوسيطة في آدرار في منطقة رياض لِكور(١) والقمنوريين في الوسط في الواحات أو علىٰ الساحل، الذين سيذكرُهم الإدريسي. ولكن ابن حوقل لم يمرّ بهم، وماكان له، ولم يسمع بهم البكري غالبًا؛ لأنهم كانوا سكانًا مستقرِّين مستنكفين عن الخط التجاري الذي يمرّ به القادمون من الشمال. وكانت الصورة الغالبة في امتداد الصحراء هي صورة المجتمع الرعوي المتنامي بسرعة. وعلىٰ العموم، فقد كان الجمالون البربر الأكثر حركية وامتدادًا. فقد كان هذا عصر البداوة المرتحلة بفعل الخيارات التي أتاحها الجمل الذي أصبح منذ قرون عمودَ الاقتصاد والتواصل، وأصبح يتيح التنقل بعيدًا بدلًا من الترحال البطيء الذي تقترحه الحياة القائمة علىٰ القطعان الصغيرة. إلا أنه كان ثمة جزء ثالث من الصورة، وقد أشار إليه طبعًا ابن حوقل والبكري واليعقوبي بإسهاب: الحياة التجارية في جنوب الصحراء.

❁ ❁ ❁

نعرف أكثر عن هذه الفترة الصحراوية، من القرن الثامن علىٰ الأقل إلىٰ القرن العاشر بحكم أنها فترة غطّاها التدوين وسُلِّط فيها الضوء علىٰ الصحراء. وعلىٰ العموم، فهي فترة استقرار النظام البدوي وتكثّفه في تجمّع قبائل صنهاجة التي أخذت في الانتظام في شأن سلطوي، رغم أن الغزوات علىٰ القوافل ظلّت مستمرة وخصوصًا من قبائل لمطة وجزولة التي كان أفرادها يكمنون للقوافل عند موقع «وانزمين»، الذي تحدث عنه البكري باعتباره مكانًا «مخوفًا»(٢). وإجمالًا، كانت سلطة البدو تفرض نفسها في إطار ممالكي ثابت، بحيث إن جغرافيي القرن الحادي عشر سيحدِّدون تمدّدهم بأنه من «بلاد الإسلام» (المغرب) إلىٰ «بلاد

---

(١) انظر مثلًا عمل الكولونيل مودا، الذي دوّن فيه الاستذكارات المحكية لهؤلاء الأقوام:
Modat, "Les populations primitive de l’Adrar mauritanien," 377-378.

(٢) البكري، ص ١٥٧.

السودان» في الجنوب (وهي في حينه كانت تعني جنوب وسط موريتانيا فما جنوبه من تگانت والحوضين وولاتة وكمبي صالح وشمال مالي والنيجر والسنغال). وما إن حلّ القرن التاسع حتىٰ كان هؤلاء البربر قد أصبحوا يُعرفون باسم «**أنبية**»، الذي استخدمه البلاذري واليعقوبي، والذي ربما كان تحالفًا قبليًا في تلك الفترة، رغم أن البلاذري أشار إليه باعتباره بطنًا صنهاجيًا. ولكن اختفاء الاسم في العقود اللاحقة يجعلنا نعتقد أنه ربما كان كيانًا سياسيًا، رغم أن المسعودي تعامل معه باعتباره مكانًا جغرافيًا.

حسب حسابات ابن خلدون فقد نشأ اتحاد صنهاجي في عهد الخليفة الأموي بالأندلس، عبد الرحمن الداخل (٧٦٦-٧٨٨م/ ١٣٨-١٧٢هـ). في الوقت الذي كان فيه الأمير الأموي يؤسِّس عهدًا جديدًا لقومه الذين قَضَوْا في المشرق بمذبحة العباسيين وكان فيه الإباضيون يبسطون سلطتهم في المغرب، استراح السكان الصحراويون من الهجمات الفهرية التي توالت عليهم، حسب الروايات، وبدأوا في التكاثف. في مطلع القرن الرابع عشر كانت صورة توحدّهم ما تزال منطبعة في ذهن المؤرخ المغربي أبي الحسن علي ابن أبي زرع (ت ١٣١٥) الذي كتب عن ملوكِ أنبية اللمتونيين الذين حكموا منذ منتصف القرن السابع الميلادي. وتحيل الروايات إلىٰ شخصية تأسيسية لهذا الاتحاد في منتصف القرن التاسع، هي أمير صنهاجي يدعىٰ تلاكاكين أو أوتنتاك (حوالي ٨٣٧م). ويبدو بعده أن المُلك ظلّ لفترة مستقِرًا ومُتداولًا تحت رئاسة لمتونة. ومن بعدِه تأمّرَ تيلوتان بن تايوالوتان الذي تقول الرواية المُبالِغة إنه كان يستطيع تنظيم جيش من مائة ألف راكب. وقد عاش حتىٰ عام ٨٣٦-٨٣٧ وتوفي في الثمانين من عمره. بالنسبة إلىٰ ابن أبي زرع كان هذا أول الأمراء الكبار في تاريخ البلاد المسجّل وقد أصبح يحكم ترابًا شاسعًا جدًا[1]، مساحته هي عموم المجال الموريتاني بما فيه جنوب المغرب ومدن السودان. عندما توفي خلفه الأثير بن باطن، المعروف أيضًا باسم يالاتان، الذي توفي عن عمر يناهز ٦٥ عامًا ما بين ٨٢٥-٨٥١، أو ربما في عام ٩٠٠. وقد خلف الأثيرَ ابنه تميمًا الذي وصلت الخلافات في عهده بين أعيان

---

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨١.

أنبية الصنهاجيين إلىٰ درجة قوية ثاروا فيها عليه وقتلوه[1].

❁ ❁ ❁

رغم أن اليعقوبي تحدّث عن أنبية صنهاجة باعتبارهم قومًا مختلفين عن بلاد غسط في الجنوب، إلا أن اسم أنبية سيختفي من التاريخ. هل انتهت الأسرة اللمتونية وبدأ حكم سلالي آخر؟ ربما[2]. أم أن أنبية كانت تعني مجال صنهاجة في شمال موريتانيا؟ أما في الجنوب، حيثُ وُجِدت أوداغست الشهيرة، فقد كان هنالك مجالٌ مختلِف يقطنه مزيجٌ من صنهاجة وزناتة والسودان؟ في غسط التي أصبح اسمها أوداغست بدأت سلطة، ربما كانت مستقلة عن نبلاء لمتونة المترأسين علىٰ صنهاجة، هي سلطة الملك الصنهاجي باروتان، الذي عرفه ابن خلدون باسم تنزاوة بن ياشيك بن إزار وتحدّث البكري عنه باسم تين يرونان بن ويسنو ابن نزار[3]. نعرِفُ أن هذا الرجل القوي حكم الصحراء في فترة يخمِّنُها ابن خلدون بأنها ما بين ٩١٢-٩٦١ (الفترة التي حدّدها بأنها ما بين عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحاكم في الأندلس). وكان هذا المقاتل من أعظم ملوك الصنهاجيين الصحراويين قاطبة. ولقد التقىٰ ابن حوقل مع رجل كان له شرف لقائه، وقد حدث هذا مؤرِّخَنا بالتفاصيل عنه.

❁ ❁ ❁

كان تِن باروتان في تلك الفترة ملكًا عظيما تأتيه الوفود من مختلف البقاع لتقدِّمَ له الولاء والطاعة، وكانت عائلته وقبيلته وافرة وغنية بحيث إنها امتدّتْ في قرابة عشرات الآلاف من الأُسَر بحسب ما يبدو مبالغة من ابن حوقل[4]. ومن الأرجح أنه كان منحدرًا من سلالة الملك، صاحب الاسم المجهول، الذي أشار

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٧٩؛ ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨٢.

(٢) هذا ما اعتقده لشاتليير مثلًا الذي حلّلَ المُعطيات أن الفترة شهدت انقسامًا بين بربر شمال الصحراء وهم لمطة، أما في الجنوب فقد سيطرت لمتونة وجدالة ومسوفة وقامت بخوض حروب مع السودان.

Alferd Le Chatelier. *L'Islam dans L'Afrique occidentale*. Paris: G. Steinheil, Editeur, 1899, p 40.

(٣) البكري، ص ١٥٩؛ ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨٢.

(٤) ابن حوقل، ص ١٠١-١٠٢.

إليه اليعقوبي في أواخر القرن التاسع بأنه يفرض أمره علىٰ أوداغست وبأنه «لا دين له ولا شريعة»[1]. ولعلّ تِن باروتان كان الملك الصحراوي الأبقىٰ أثرًا في نفوس المؤرِّخين قبل العصر المرابطي. ولعلّ المسؤول عن هذا التأبيد كان يوسف الوراق، المتوفّىٰ في ٩٧٣-٩٧٤م، الذي ضاعت أعماله ولكن ليس قبل أن يعتمد عليها البكري في تاريخه، والذي- أي الورّاق- زار أرض صنهاجة في ستينيات القرن العاشر وكتب عنها وعن ملوكها. وبالنسبة إلىٰ الصورة التي استخلصها الرحالة النصيبي، فإن الوفود كانت تحجُّ كل عام للملك الصنهاجي لتقدِّم له فروض الولاء والطاعة. بعضها كان يأتي من أقصىٰ الأرض، ولم يكن الملك يعرف حتىٰ من أين يأتون. وكلّ ما عرفه هو أنهم كانوا يدينون له بالإذعان والتسليم. والرّاجح أنّه كان لهذا التسليم مخرجات ضريبية معلومة. وقد عدّد المؤرِّخ العربي خيام الملك في مضاربه بأنها تصل إلىٰ ٣٠٠٠٠٠ بيت[2]. وربما هو من أشار إليه ابن أبي زرع بأنه «كان يركب في مائة ألف نجيب»[3]. أما نظامه السياسي فكان ملكيًا وراثيًا؛ لأن الملك كان «دومًا في أسرته»[4]. وتمامًا مثل الملك المجهول في غسط، فإن تن باروتان أيضًا كان ملِك أوداغست، كما سمّاه ابن حوقل، ولكن في غياب أدلّة علىٰ أنّه - مثله في ذلك مثل سلفه - أقام بها أو أنها كانت عاصمةً له. وربّما لم تكن أوداغست غير مكانٍ فرَض عليه الصنهاجيون الغرامة. وكان لتن باروتان، مثله مثل سلفه، نفوذٌ علىٰ السودان، فيما وراء أوداغست. فإذا كان اليعقوبي قد قال لنا عن سلفه القديم إنه «يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة»[5]، فإن ابن خلدون يقول لنا إن عشرين من ملوك السودان كانوا يدينون لتن باروتان بالطاعة والولاء، وإنّه قد «دوّخ بلاد الصحراء واقتضىٰ مغارم السودان»[6].

(١) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ١٥١.

(٢) ابن حوقل، ص ١٠٠.

(٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٧٩؛ ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨٢.

(٤) ابن حوقل، ص ١٠٠.

(٥) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ١٥١.

(٦) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨١.

جاء نفوذ الملك الصنهاجي من حقيقة واضحة لابن حوقل وهي تحكّمه في عصب الحياة بالنسبة إلىٰ السودان الإفريقي: الملح. فقد عجزت الصناعات النباتية الاستخراجية في غانا، الواقعة جنوب الصحراء (جنوب موريتانيا وشمال مالي الحاليتين)، عن إنتاج ملح يمكن أن يكون بديلًا للملح الطبيعي المستجلب من الصحراء من أرض مسوفة وجدالة. ونتيجة لهذا تراوح ثمن سبيكة الملح ما بين ٢٠٠ إلىٰ ٣٠٠ دينار في داخل بلاد السودان ونواحيها البعيدة(١). ومنذ القرن العاشر علىٰ الأقل سيصبح غلاء الملح أمرًا مقلقًا للاستراتيجية في غانا؛ وسيُحاوِل الغانيون مرارًا عبر التاريخ، كما الممالك السودانية التي أعقبتهم، السيطرة علىٰ الملح. غير أن بقاءه في هذه الفترة في أيدي الصنهاجيين سيجعلهم يحدِّدون قيمة الذهب، الذي يقع في حوزة غانا، ويُسهِّلون به تأمين المستوردات من أرض السودان، ليس فقط من الذهب، وإنما من العبيد وربما من بعضِ المحاصيل(٢). وربما قوّىٰ هذا النفوذ من التحكم في المنافذ التجارية التي تؤدِّي إلىٰ بلاد السودان وتأتي إليها بالتجارة خصوصًا بعد سدِّ المسالك القوافلية الموازية للمسلك الصنهاجي. فحتّىٰ مطلع القرن التاسع كان يُنافِسه طريقٌ قوافلي يصل مصر والنوبة بالممالك السودانية من جهة الشرق والوسط الإفريقي، وكان مسلكًا سليمًا آمنًا مسيرته ثلاثة أيام ما بين الشمال إلىٰ الجنوب، غير أنه تحوّلَ ابتداءً من العهد الطولوني إلىٰ منفذٍ خطر بسبب الرياح السموم التي أهلكت عددًا من القوافل. وعندئذ أمر أبو العباس، أحمد ابن طولون (٨٣٥-٨٨٣)، أمير مصر والشام، بسدِّه نهائيًا(٣)، تاركًا الطرق الصحراوية في المجال الصنهاجي والطوارقي والزغاوي تستفرد بالذهب، السوداني خصوصًا، والإفريقي نسبيًا. ويمكن أن نخِّمن أن هذا رفع من قيمة الملح؛ إذ ربما قلّل من عدد القوافل القادمة للسودان وبالتالي أضعف قدرة الممالك الجنوبية علىٰ الخيار في الأسعار.

❀ ❀ ❀

---

(١) ابن حوقل، ص ١٠١.

(2) E. Ann McDougalll, "The Sahara Reconsidered: Pastoralism, Politics and Salt from the Ninth through the Twelfth Centuries," *African Economic History* No. 12, Business Empires in Equatorial Africa (1983), pp. 263-286.

(٣) ابن حوقل، ص ١٥٣.

من الواضح من مقولات اليعقوبي وابن خلدون وابن أبي زرع وابن حوقل والبكري والورّاق أن مجتمع الصحراء تمتّع بقيادة وسلطة قويّة. ولكن القيادة ليست إلا انعكاسًا لصورة المجتمع، فإضافة إلىٰ عوامل التحكم في الملح الذي كان بمثابة النقود والتحكم بمسارات القوافل، فإن ما زاد من تفوّق ملك أوداغست علىٰ السودان كان عامل رأس المال البشري، المتمثِّل في تفوق سكان الصحراء عسكريًا علىٰ جيرانها السودان، القارين والمزارعين. فبعكس معظم سكان السودان مثّلَ سكان الصحراء بداوة عسكرية، نمط إنتاجها الحرب والغزو. ونتيجة لهذا تمرّسوا في فنون القتال والفروسية، وقد أثارت قدراتهم في الفراسة والاستدلال ومعرفة المسالك والصبر والشدة والعدو انتباه ابن حوقل[١]. ولم يكن الأمر حكرًا علىٰ رجالهم فحسب، بل إن ثمّة إحالات إلىٰ أن نساءهم كن مقاتلات باسلات. ولم يغب عن ابن حوقل أن هنالك «جَلَدًا في نسائهم»[٢]. ولعلّ هذا، ومعلومات إضافية مثله، هي ما حدا بابن خَلِّكان إلىٰ تفسير عادة التلثُّم في الصحراء أنها كانت أصلًا للتغطية علىٰ هوية النساء المقاتلات وتكثير المحاربين بِهِنّ[٣]. وبفعل هذه القوة البشرية، التي كان الملك الصنهاجي منظِّمَها، أصبحت رئاسة صنهاجة تفرضُ الإتاوات علىٰ الممالك المجاورة التي كانت، علاوة علىٰ ذلك، بحاجة ماسة للملح الصحراوي. وكان ملك أوداغست ينظِّم حملات ضدّ بلاد السودان[٤]، وقد عدّد البكري، ثمّ ابن خلدون، عددًا من الممالك التي كانت تدفع المكوس له واعتبرها عشرين مملكة[٥].

يتضّحُ من تفصيل الرواة العرب لقوة صنهاجة أنها كانت ذات بعدٍ توسّعي وعسكري، وأن الصنهاجيين كانوا استثمارًا غازيًا. وربما لم يكن الملك غير

---

(١) نفسه، ص ١٠١.

(٢) نفسه.

(٣) الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٤، ج ٢: الدولتان المرابطية والموحدية، ص ٣.

(٤) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ١٥١.

(٥) البكري، ١٥٩؛ وأيضًا ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨١.

منظِّم لهجماتِهم. ولقد حكىٰ البكري كيف تدخّل تِن باروتان في نزاع بين مَلِكَيْن من ملوك السودان، هما ملك ماسين وملك أكوام. فقرّر دعم صديقه، ملك ماسين، وجهّزَ حملة هائلة من ٥٠٠٠٠ محارب، هي نصف قوة صنهاجة العسكرية (إذ في مصدر سابق للبكري أن طاقتهم ١٠٠٠٠٠)، وهاجم بها بلاد أكوام فيما بدا إحدىٰ أضخم الحملات العسكرية في تاريخ المنطقة، وإن تمّتْ بشكل خاطف وسلس، عندما باغتت قوات صنهاجة المملكة السودانية. وسرعان ما انهزم الجيش السوداني وقُتل أفراده قبل أن يجدوا الفرصة في التجمّع، ما سمح للجيش الصحراوي الغازي بنهب المملكة. وبسرعة استُبيحت كلّ خيرات المدينة، أما ما غلا حمله فقد أحرقه الغزاة. وعندما استحرّ القتل في أكوام أمام عينَيِ الملك فتّ الأمر في عضده وأخذ منه الإحباط، فنزل عن مركوبه ورمىٰ دِرعه وهو في قمة الحسرة وجلس علىٰ الدرع في حالة مطلقة من الضياع حتىٰ وقف عليه محاربو صنهاجة وقتلوه، واختطفوا النسوة السودانيات اللواتي قمن في الغالب بالانتحار تحسُّرًا علىٰ الملك وخوفًا من الذلّ وتأفُّفًا من أن يصرن إماءً للصحراويين[1].

بيد أنه يتجلّىٰ من التورّط الصنهاجي في القلاقل والتجارة السياسية في السودان أنهم لم يكونوا مجرّد قوّة غازية، وإنما كانوا حلفاء وأصدقاء لمجموعات سودانية دون غيرِها. وبدورِها أثمرت هذه العلاقات عن استقدام السودانيين إلىٰ الشمال. ولعلّ هذه عملية تعودُ إلىٰ ما هو أقدَم من القرن التاسع. فتُخبِرُنا المصادِر العربية والإسلامية في «فتح» المسلمين للأندلس أن السودانيين كانوا من المشاركين فيه، إضافة إلىٰ جموع العرب والبربر (بما فيهم بعضُ المنحدرين من الأصول الوندالية). ورغم أن أسلاف الحراطين - وهم صحراويون سود البشرة - ربما ازدهروا في جنوب المغرب في هذه الفترة، كما سنُفضي إلىٰ ذلك؛ إلاّ أن ما تقصِده المصادر العربية عادةً بالسودان هم سكان الجنوب الصحراوي. وإذا صحّ استقدامُهم وتعبئتُهم في فتح الأندلس في عام ٧١١، فإنّه من الصعب علينا تصوّر هذا من دون توسّط الصحراء[2]. وهذا أيضًا واضِح من خلال عملية تأسيس

(١) البكري، ص ١٥٩.

(٢) انظر مثلًا خلاصة الدراسات الحديثة لتاريخ العرب في الأندلس: =

الدولة المِدرارية في أربعينيات القرن الثامن الميلادي، إذّ يبدو أنّ الفريقَيْن كانوا حُلفاء في تأسيس المدينة وفي تشعّب علاقاتِها لتجارية[1].

إلاّ أن الحرب الصنهاجية علىٰ السودان ربما ذاعت أكثر من تحالُفِها معه وكانت أمرًا متكررًا منذ القرن العاشر، وقد وصلت أنباؤها إلىٰ اليعقوبي بالرافدين[2]. كما أنها كانت حديث الركبان من الجنوب إلىٰ الشمال، وربما ساهم هذا في تعبئة المثقفين الشماليين ضدّ السودان. ففي هذه الفترة من أواخر القرن العاشر تعيّن علىٰ مثقف قانوني في إفريقية هو أبو زيد القيرواني (٩٢٢-٩٩٦)، معالجة مواضيع الأسفار والمتاجرة مع بلاد السودان التي كانت في حالة تقلقل مع الصحراء. كان القيرواني نوعًا من المرجعية الفقهية المالكية في ذلك الزمان، وقد تمت تسميته بـ «**مالك الصغير**» حيث كتب رسالة في الفقه ستعرف بـ«**الرسالة**» وستصبح مرجعًا مختصرًا في العلوم الفقهية والقانونية، وسيصل مداها بقوة إلىٰ المجال الموريتاني بعد قرون من انتصار المدِّ المالكي من خلال حركة المرابطين ولواحقها الثقافية. كتب القيرواني رسالته في أيام التنافس الصنهاجي-العربي مع النفوذ السوداني، ولعلّ هذا التنافس كان حاضرًا في الذهن العام من خلال رحلات التجار القيروانيين الذين وصلوا إلىٰ المجال عن طريق القوافل المباشرة من زويلة-كانيم أو طريق القيروان-سجلماسة-أوداغست. ولعلّ موقف القيرواني نتيجة لهذا كان مُضِرًا بتجارة السودان، فقد حرّم استخدام عاج الفيل، الذي ظل تجارة صيادي جنوب الصحراء حتىٰ القرن التاسع عشر، كما أفاد بأن التجارة إلىٰ ما أسماه «بلاد العدو وبلاد السودان» مكروهة[3]. ولكن رغم هذه الفتوىٰ من هذا المرجع الكبير، إلا أن التجارة مع الجنوب ازدهرت بشكل مطّرِد مع الوقت كما أن وضعية الجنوب الدينية ستتغيّر بازدياد باتجاه الإسلام طوال هذه الفترة.

رغم قوة الصنهاجيين، إلا أن ملكهم لم يكن دومًا مستقرًا وثابتًا؛ بل ظلّت

= Richard Hitchcock, *Muslim Spain Reconsidered: from 711 to 1502*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 2014, p. 18.

(١) انظر: إسماعيل عبد الرّازق، ١١٣ فما بعدها؛ و .Paul Love, 177-178; Darchaoui, 269-299

(٢) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ١٥١.

(٣) أبو محمد عبد الله بن زيد القيرواني، الرسالة الفقهية، إعداد وتحقيق عبد الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط٢، ١٩٩٧، ص ٢٨١.

الغزوات المتبادلة بين القبائل صفة حياة البلاد بحيث إن عبد الله بن ياسين، الذي أراد إصلاح الوضعية السياسية في الصحراء، سيصف أهلها في هذه الفترة بأنه لا همّ لهم «إلا إغارة بعضهم علىٰ بعض»[1]. وحتىٰ في إطار السلطة الصنهاجية لم تكن سلطتهم وراثية دائمًا، عكس ما قال به ابن حوقل، بل ولم تكن خالية من القلاقل ولم يكن التسليم بملك العائلة الحاكمة مطلقًا، فقد حاولت القبائل البدوية دومًا إسقاط السلطة بالقوة وبالغزوات المفاجئة. ويعطي ابن حوقل نفسه مثالًا علىٰ هذا عندما تحدّثَ عن محاولة إحدىٰ قبائل الصحراء من خارج أوداغست إسقاط حكم آل تِن بروتان بحملة عسكرية كبيرة مجهزّةً تجهيزًا كبيرًا. ولم يتمّ صدّ الهجوم إلا بتعاون عسكري بين تِن باروتان وأصهاره من جهة أخته المتنفِّذة، الذين دعموه بالإبل المقاتلة[2].

وحتىٰ هنا لم تتوقف القلاقل، فيتحدّث ابن أبي زرع عن ١٢٠ عامًا من الصراعات الأهلية وعدم الاستقرار سادت في مجال صنهاجة بعد مقتل تميم بن الأثير في مطلع القرن العاشر. ومن الواضح أن صراعات المائة سنة كانت تتعلّق بمشاكل السلطة، حيث لم يستطع الصنهاجيون الاتفاق علىٰ حاكم موَحّد قبل الأمير عبد الله بن تيفاوت (محمد ترسنىٰ، أو ترشنة، اللمتني) الذي التأم الصحراويون علىٰ سلطته حلًا لمشاكل الزعامة. وبعد هذا الرجل استقرّت الوضعية علىٰ تناقل سلمي للسلطة، فقد خلَفه رجل من جدالة هو صهره، يحيىٰ بن إبراهيم[3]. ويبدو أن علاقات المصاهرة كانت مهمة في تعزيز أواصر القبائل المتنافسة وخاصة بين جدالة ولمتونة. لاحقًا سيقوم شاهدان تاريخيان، هما أبن أبي زرع وابن خلدون، بتحليل حركة المرابطين في إطار علاقات المصاهرة بين جدالة ولمتونة.

❁ ❁ ❁

رغم أن الاتحاد الصنهاجي كان قائمًا وتحت رئاسة لمتونة[4]، إلا أنه من الصعب تخيّل مركزية في الحياة البدوية بسبب شساعة الأرض وغياب سلطة

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ١٤٢-١٤٣.

(٢) ابن حوقل، ص ١٠٠-١٠١.

(٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٧٩؛ ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨٢.

(٤) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨١.

مركزية. وهكذا كانت الخريطة السياسية للقبائل انقسامية وتَتَمتّع فيها القبائل باستقلال ترابي ملحوظ. فقد نزلت قبيلة لمتونة، التي كانت بدورها تتألف من عدة قبائل كبني ورتنطق وبني زمال وبني صولان وبني ناسجة، في وسط المجال الصحراوي ومركزه في شمال تگانت ومنطقة آدرار، حيث عرفت منطقة هضاب آدرار الكبيرة بجبل لمتونة، أما حاضرتهم فكانت تعرف في حينه بكاكدم أو أكرم(١)، ومن الأرجح أنها كانت تمتَدُّ في الشمال الأعلىٰ في تيريس أو جنوب تيندوف الحالية، وليس في آدرار كما تذهب بعضُ الآثار الشفاهية(٢). وكانت مسارح اللمتونيين تمتدُّ جنوبًا، ربما إلىٰ شمال منطقة الحوض في الشرق الموريتاني حيث امتدت أرضهم من تازوكاغت في الساقية الحمراء إلىٰ نول في الشمال إلىٰ إيزال، التي هي كدية الجلد في آدرار، وفي جنوب آدرار في تگانت، حيث وُجد مكان في أعلىٰ تگانت يسمىٰ لمتونة في القرن العاشر. وفي عام ١٠٥٤م سيزيدون نفوذهم بالسيطرة علىٰ كلّ آدرار الذي سيعرف لاحقًا بجبل آدرار. في حينه كانت هذه المنطقة هي منطقة البافور الذين تشير إليهم الكتابات البرتغالية والحكايات الشفهية(٣). وصف البكري انتشارهم الكثيف في الصحراء بأنهم «ظواعن رحالة في الصحراء، مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين»(٤). وبينما بقي الجداليون والمسوفيون وبنو وارث علىٰ هامش الأراضي اللمتونية وفي منطقة آدرار الحالية، كانت السيادة لقبيلة بني ينتسر الصنهاجية(٥).

أما جدالة (أكَدالة) فقد نزلت في الساحل الموريتاني في شمال نهر السنغال

---

(١) نفسه.

(2) H. T. Norris. *Saharan Myth and Saga*. Oxford: Clarendon Press, 1972, 74-89.

(٣) نفسه، ص ٧٩-٨٠.

T. Lewicki. The Role of the Saharians in North and South. Unesco International Scientific Committee for the Drafting of a *General History of Africa. General History of Africa: (vol III) Africa from the Seventh to the Eleventh Century*. Ed. I. Hrbeh. California: James Currey, 1992, p, 276-314. ص ٣١١.

(٤) البكري، ص ١٦٤.

(٥) نفسه.

إلىٰ تيريس. ولعلّ هذه القبيلة الصنهاجية هي إحدىٰ أوائل ملاك مجال نواكشوط بعد الانزياح الجنوبي لسكانه السود في القرون السحيقة. ويبدو أن التوسّع السكاني الكثيف باتجاه أرض الگبلة (جنوب غرب البلاد) سيبدأ في الفترة ٧٠٠-١٠٠٠[١]، التي سماها بعض المؤرخين بـ «**الفترة الجدالية**». وقد سيطرت هذه القبيلة علىٰ سباخ آوليل الغنية والمتاخمة لبلاد السودان[٢]. كانت قبيلة كثيفة متعدِّدة البطون وقد سيطرت في بعض تاريخها علىٰ القبائل الصنهاجية كلّها، كما تقول لنا مصادر البربر نفسها[٣].

وفي محاذاة هؤلاء نزل المسوفيون (بنو مسوفة) وبدأوا في الانتشار العريض ما بين سجلماسة ووادي درعة وأواداغست[٤]، مُغطِّين الخط الشرقي من موريتانيا؛ إذْ سنرىٰ أنّهم توطّدوا في القرن الثالث عشر في منطقة ولاتة ونواحيها، كما سيطروا علىٰ السباخ الكبيرة في تاتانتال، كما عرفها البكري، التي عرفت أيضًا بـ «**حسان الملح**»، والتي ستكون مصدر الاحتكاك مع الممالك السودانية في منطقة الحوض[٥]. وكانوا يستخدمون عبيدهم في استخراج سبائك الملح للمتاجرة بها عبر القوافل. ولقد أصبحت تجارة الملح هذه نشاطًا مزدهرًا جدًا للمسوفيين، وإن كانت ستصاب بكارثة كبرىٰ نتيجة طَمْرِ المدينة الشمالية بالرمال مدّة قرن من الزمن (٨٥٠-٩٥٠م)؛ ما أسفر عن كساد كبير جعل المسوفيين يهاجرون بعبيدهم بحثًا عن مناطق أخرىٰ للملح. وكان للمسوفيين أيضًا تمدّد واسع في الشمال، بحيث إن صاحب **الاستبصار** عرف شمال الصحراء بـ «**بلاد مسوفة**»[٦].

---

(1) James Webb. Desert Frontier: Ecological and Economic Change along the Western Sahel 1600-1850. Wisconsin: The University of Wisconsin Press, 1995, 28.

(2) H. T. Norris. Saharan Myths, 78

(٣) مفاخر البربر، ص ١٤٥.

(4) McDougalll, *The Sahara Reconsidered*, 267.

(5) H. T. Norris. *Saharan Myths*, 79.

(٦) الاستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلفٍ مجهول، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر للشؤون الثقافية العامة، بغداد، دون تاريخ، ص ٦٧.

وكانوا علىٰ تداخل مستمر مع قبيلة لمطة، التي ستعرف أيضًا، في إطار تحوّلات نسبية واندماجية لاحقة، بإيلميدن. وكجزء من هذا التداخل، فإنها كانت تهبط منتجعة في شمال المجال الموريتاني. كانت تسكن بالأساس في وادي سوس ودرعة، ولكنها كانت تهبط خلف الكلأ والمرعىٰ إلىٰ آدرار. لم يكن اللمطيون صنهاجيين، وإنما كانوا إخوانهم القريبين مثلهم مثل هسكرة وجزولة، ولكنهم كانوا قبيلة مُلثّمة مثلها مثل القبائل الصنهاجية. وبفعل المساكنة فقد تحوّلوا إلىٰ قبيلة شبيهة بهم. ونعرف أنهم عاشوا طويلًا إلىٰ جانب جزولة في الشمال، وفي الجنوب جاوروا مسوفة حيث نزلوا في مزَاب من جهة الجنوب المغربي وذلك في امتداد بين مسوفة وطارقة (الطوارق)(١). ورغم أن اللمطيين كانوا غالبًا بدوًا رحلًا، إلا أنهم سيطروا علىٰ مدينة نول التجارية، التي كانت أول مدينة مأهولة في الجنوب المغربي إلىٰ الصحراء. وستكون مشاركتهم في تاريخ الصحراء هي تقديمهم للفقيه وجاج بن زلوىٰ الذي سيشرف علىٰ تقديم داعية جهادي متحمس هو عبد الله بن ياسين، المؤسّس الحقيقي لحركة المرابطين. بعد قرون سيشتهرون بتصنيع أهم الآليات القتالية، حيث ستصبح نول مركزًا لصناعة الدروع اللمطية التي كانت تصنع من جلود الغزلان اللمطية(٢).

إضافة لهذه القبائل البارزة، فإن عشرات البطون الصنهاجية كانت تَعْمُرُ بقية مجال الصحراء، وربما كانت تشكِّلُ أغلبية سكان الصحراء ولكنها ستختفي في صمت وسيتمُّ امتصاصها في ديناميكيات الجينيالوجيا الصحراوية علىٰ مرِّ القرون اللاحقة. بيد أنها في القرن العاشر والحادي عشر كانت حية بوجودها وأسمائها القبلية الكثيرة، التي عدّدها ابن حوقل بشكل يعترف هو نفسه بأنه مملّ. فمثلًا كانت ثمّة أسماء كثيرة مثل: بنو صالح، وبنو ماركسن، وبنو تونك، وسططة، وغيرها ممن لم يبق له أثر بعد مرور الرحّالة(٣). ويعدِّدُ ابن خلدون قبائل أخرىٰ كانت علىٰ احتكاك معهم في عرض الصحراء هي وتريكة وناوكا وزغاوة

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٠٣.
(٢) الزهري، كتاب الجغرافية، ص ١١٨.
(٣) ابن حوقل، ص ١٠٤-١٠٥.

وغيرهم[١]. أما الناصري الذي يعدّد قبائل صنهاجية كمسراتة ومداسة وبني ذخير وبني زياد وبني فشتال وبني موسىٰ، فخلص إلىٰ أنه توجد تحت هذه القبائل بطونٌ وأفخاذٌ «تفوت الحصر»[٢]. وهو ما لخصه صاحب **الاستبصار** بأنهم: «قبائل كثيرة»، و«خلق كثير»[٣].

❁ ❁ ❁

رغم أن الملك الصنهاجي كان يسيطر علىٰ أوداغست التي كانت حاضرة مهمة في أواخر القرن العاشر، إلا أنه لم يكن ملكًا مدنيًا كما أن الصنهاجيين لم يتحوّلوا إلىٰ سكان مدن مستقرين، ربما باستثناء حواضر صغيرة كمدوكن وبانكلايين اللتَيْن أقامت بهما مجموعات بني ينتسر وبني وارث[٤]. أما البقية فكان نظامهم معتمدًا علىٰ الغزوات وعلىٰ المغارم التي فرضونها علىٰ الحركة التجارية من المدينة النشطة وإليها. وبوجهٍ آخر، كانوا يؤمِّنون الحركة التجارية ويضمنون سلامة القوافل، وهو ما يُعرف بالخفارة أو الإجارة. وبعكس لمتونة، فإن مسوفة دخلوا جوهر الحركة التجارية في هذه القرون عندما بدأوا في مباشرة تجارة الملح في تغازة وتاودنِّي اللتَيْن كانتا في مجالهم الأرضي[٥]. أما لمطة فلم يظهروا في المجال التجاري الموريتاني غالبًا، وإن كانت صناعاتُهم الحِرفية قد دخلته.

وربما بسبب بقاء الصنهاجيين، إلاّ أقلّهم، قوةً أمنية متجولة في إطار نظامها الاجتماعي كرعاة مترحِّلين ومقاتلين، فإن علاقاتهم مع المجتمعات التجارية والمقيمة بقيت في إطار التكامل الاقتصادي. وهكذا بقوا لفترات طويلة يرافقون القوافل لقاء الضرائب. وربما لهذه الأسباب لم تكن لهم سلطة مركزية[٦]. بل كانوا ينتشرون في عموم المنطقة لجمع الضرائب والمغارم. وكانت هذه المغارمية

---

(١) ابن خلدون. ج٦، ١٠٧.

(٢) الناصري، كتاب الاستقصا، ص ٣.

(٣) الاستبصار، ص ٦٧.

(٤) البكري، ص ١٦٤.

(٥) حسب مشاهدات ابن بطوطة. انظر الفصل عن «بلاد التكرور».

(٦) البكري، ص ١٦٤.

أو الخفارة تجمع أنماطًا مختلفة من الإقطاعية العسكرية المتراوحة بين حراسة القوافل والاستفادة منها لقاء ذلك إلىٰ بيع حقوق عبور الوديان والقفار إلىٰ فرض الحماية علىٰ المجتمعات المقيمة إلىٰ غزوها وسلبها أو نهب القوافل. وبفضل هذا كان زعماء القبائل يظهرون كسلاطين قبليين يتبعهم الجميع لقيمتهم القيادية ولتقسيمهم للثروة بينهم. إن كل النظام الصحراوي سيكون تطورًا وتحوُّلًا من هذا النظام حتىٰ عهد قريب.

رغم هذا، فإن الغالبية في الصحراء بقيت بدوًا رحلًا يفتقرون إلىٰ الوفرة والرخاء. وقد نقل عنهم الرحالة العرب صورًا تتراوح بين الوحشية والجوع والضياع؛ إذ يُبلِغُ ابن حوقل أنهم: «كانوا قبائل من البربر المهمَلين الذين لا يعرفون الطعام ولا رأَوْا الحنطة ولا الشعير ولا شيئًا من الحبوب، والغالب عليهم الشقاء والاتشاح بالكساء»(١). ويُضيفُ البكري أنّهم: «لم يكونوا يعرفون حرثًا ولا زرعًا ولا خبزًا. إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن. ينفَذُ شهرًا أحدِهم وما رأىٰ خبزًا ولا أكله، إلا أن يمرَّ بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونَهم الخبز ويُتحِفونهم بالدقيق»(٢).

بل إن الإدريسي يتحدّث عن اقتيات سكان صحراء نيسر علىٰ الأفاعي والحيات، فيقول: «وفي هذه الصحراء المعروفة بصحراء نَيْسر حياتٌ كثيرة طوال القدود غلاظ الأجسام، والسودان يصيدونها ويقطعون رؤوسها ويرمون بها ويطبخونها بالملح والماء والشيح ويأكلونها، وهي عندهم أطيبُ طعام يأكلونه»(٣). أما المؤلف المجهول لـ**الاستبصار** فقد حادَ قليلًا عندما اعتبر أن الصحراء كانت مسرحًا كبيرًا للجن والعفاريب يتخطّفون فيه الإنس ويطردونهم من مدنهم ويخطفون أولادهم، ويعزفون ويُغنّون في الصحراء(٤).

رغم أن الجغرافيين العرب كانوا أكثر واقعية في نقلهم لحياة الصحراء، إلا أن

---

(١) ابن حوقل، ص ٨٤.

(٢) البكري، ص ١٦٤.

(٣) الإدريسي، وصف إفريقيا، ص ٤.

(٤) الاستبصار، ص ٦٧.

صورة هؤلاء السكان لم تتغيّر كثيرًا عن الصور التي قدمها هيرودوتس وبليني وبومبونيوس الميلي: قومٌ أقوياء وسريعون(١) يعيشون في حالة كبيرة من الندرة ويأكلون الزواحف، ولا يعرفون المأكل الكريم ولا حتىٰ الشعير. ورغم أن هذه الصورة الأخيرة لا تستقيم، وربما عكست نوعًا من «الاستشراق» السابق لأوانه ومجاله؛ إذ ما كان لسكان الصحراء أن يعيشوا أبد حياتهم من دون القمح والشعير(٢)، رغم هذه الصورة إلا أن حالة الندرة كانت حقيقية ولا شيء يدعو لإنكارها؛ لأنها ظلّت مستمرة في التاريخ الطويل للصحراء. وربما كانت صورة البكري وابن حوقل أكثر عمقًا؛ لأنها صوّرت أغنياء الصحراء وملوكها ونبلاءها، وفي الوقت نفسه صوّرت فقراءها وجوعاها بدلًا من أن تختزل جانبًا منهم في جانبه الآخر. وسنرىٰ في أوداغست أن هذه الصورة تم نقلها أيضًا عن المدن الصحراوية بحذافيرها.

❁ ❁ ❁

في مدة ستة قرون تحدّث كثير من الكتّاب الموسوعيين العرب عن أوداغست، مدينة الصحراء. وبالطبع كان دورها في التجارة ما بين المراكز الإسلامية والسودان، هو مبرر هذا الاهتمام. فقد كانت داخلة في التاريخ العالمي الإسلامي في كونِها من أواخر محطّاتِ القوافل التي تناقلت البضائع عبر الأصقاع الإسلامية. ولقد استمرّ هذا الدور التاريخي طويلًا؛ فـ«**حضارة أوداغست**» كما تسميها المؤرِّخة أن ماك دوغال، عاشت العمرَ الأطول في تاريخ التمدّن الموريتاني بعد حضارة تيشيت-ولاتة (٢٠٠-١٨٠٠ ق.م)، إذْ لبِثت خمسةَ قرون متتابِعة(٣).

---

(1) Herodotus, *The History*, vol, 1, 436; ابن حوقل، ١٠١

(2) E. Ann McDougall "The Sahara Reconsidered: Pastoralism, Politics and Salt from the Ninth through the Twelfth Centuries," *African Economic History* No. 12, Business Empires in Equatorial Africa (1983), pp. 263-286.

(٣) إن تحقيب أوداغست لهو موضوع خلاف بين الأركيوليجيين، حيث يقدم D. Robert مؤلف Fouille de Tegdqoust تحقيبًا من أربع مراحل، غير أن هنالك ميلًا إلىٰ اعتماد تحقيب evisse المبني علىٰ ست مراحل في: Teggdaoust III، ص ٥٥٤-٥٥٦.

ما زالت إلىٰ حدِّ الآن قصة نشوء أوداغست، في شرق جنوب موريتانيا في منطقة الحوض الغربي (قرب تامشكط الحالية)، أمرًا لا يتفِقُ عليه الدارسون وما زالت موضوع تكهُّنات عديدة لم تحسمها الاكتشافات الحفرية. كلّ ما نعرفه الآن أنها بدأت تجمعًا نصف مدني يجمع بين الظعن والانتجاع، ولكنه سرعان ما تطوّر إلىٰ مدينة مستقرَة ومدرّة للأرباح[1]. وبدأ سكان غسط، وهذا هو الاسم الأول الذي ظهر للمدينة في القرن التاسع، حياتَهم معتمدين علىٰ تربية القطعان، كما يدلُّ علىٰ ذلك الحضور القوي للأسيجة في مركز مدينتهم الأولىٰ. إن تطوّر الأسيِجة وتوسُّعها بعد قرن يوحي بتطوّر ما هو داخل الأسيجة، وربما كان يعكس رفاهًا جديدًا بفعل التجارة.

إنها ثاني حضارة موريتانية تبدأ بداية متواضعة ثم تتطوّر إلىٰ شيء مغايِر لما بدأت عنه. ففي العصر النيوليثي تطوّر مجتمع من السماكين إلىٰ حضارة زراعية رائدة في تيشيت وولاتة. وفي السنوات الأخيرة للإعمار الثاني لأوداغست، الذي لعلّه كان مجرّدَ تجمُّع لرعاة وتجار في القرن الثامن، بدأت تطورات مهمة تحدث في فنِّ العمارة الخاص بالمدينة. ونعرِفُ الآن أنها نمت في ستة تحديثات معلمية عكست حجم التغييرات والمتطلّبات الاجتماعية والبيئية داخلها. ويبدو بحسب الحفريات أنها مرّت بحقبتَيْن معلَميتَيْن قبل أن تدخل التاريخ المكتوب. ولن يبدأ الوعي التاريخي العربي بها إلاّ مع إشارة اليعقوبي الذي كتب تاريخه في عام ٨٧٢م في خراسان (إيران). كانت قد تأسّست قبل ذلك بعقود (القرن السابع الميلادي بحسب النظرية الأولىٰ للحفري جان ديفيس Jean Devisse والقرن الثامن بحسب نظريته الثانية)[2]. في فترتها الأولىٰ لم تعرف كثيرًا من الأبنية وإنما كانت مكانًا مُسيّجًا جيِّدًا وله شبكة من مصارف المياه التقليدية وخزانات الحبوب، شبيهًا بنظام القرىٰ التيشيتية الولاتية القديمة[3]. ولقد نقل اليعقوبي ما وصل إليه التحقيب الحفري الحديث من قِلّة الأبنية في المدينة في عصرها الأول، ونعرِفُ

(1) McDougalll, *The View*, 13.

(٢) نفسه، ص ١٠.

(٣) نفسه، ص ١٠.

من الحفريات أنها كانت مستودعًا للبضائع التجارية أو سوقًا صغيرًا أو مستراحًا سفريًا.

إلاّ أن الوضعية تغيّرت وتحوّلت المدينة إلىٰ ازدهار في عهد البكري في مطلع القرن الحادي عشر ومنتصفه، وتحوّلت مساكنها إلىٰ بيوتٍ من الآجر واللّبِن الطيني، ولم تعد مجرّد أسيجة علىٰ صورتِها القديمة، وإنما تطوّرت كثيرًا. سمع البكري أن المدينة هي مركز ازدهار ذات هواء ساحلي. أما حجمها الذي ذكره، فنحن نعرف اليوم أنه كان يُغطّي مساحة ٧٠٠ في ٤٠٠ متر مكعب. وربما كانت أوسع من ذلك إذا وضعنا احتمال أن تكون عدّة مواقع غير مشيّدَة، رعوية وانتجاعية قد ازدهرت في أطرافها، أما المقبرة فكانت خارج هذه المساحة(١). وكانت المدينة محاطة بجبلَيْن فيما كانت أرضها رملية. ولهذه الأسباب شبَهّها ياقوت الحموي بمكة المكرّمة.

❀ ❀ ❀

مع القرن العاشر لم يبقَ من «مجوسية» بربر الصحراء، التي تحدّث عنها ابن خلدون، الكثير. وباستثناء اللثام الذي صار هوية وثقافة أكثر منه طقسًا دينيًا، فإن الأرواحية والطوطمية القديمة اختفت ظاهريًا من حياة الصحراء. إلاّ أن الأمر لم يحدث نتيجة لاعتناق الإسلام السني، أو علىٰ الأقل لم يحدث نتيجة له وحده؛ وإنما من نقيضه أيضًا: الإسلام الشيعي والخارجي. ورغم أن البكري تحدّث عن أن أهل البلاد مجاهدون وعلىٰ السنة(٢)، إلا أن التدين السني لم يتغلغل بشكل عام في الثقافة الصحراوية إلا في منتصف القرن الحادي عشر، أي في عهد البكري نفسه. وربّما حتّىٰ بعده؛ إذ ستبقىٰ العادات الاجتماعية لما قبل الإسلام ومن التقاليد الإباضية، وربما الشيعية، حاضرة حتىٰ مجيء المرابطين والمدّ المالكي النضالي. بل ولم تكن التقاليد الإسلامية مُعتبرة جدًا في مجالات واسعة، حتّىٰ بعد سيادة الإسلام. وفي منتصف القرن الحادي عشر لخّصَ عبد الله بن ياسين وضعية تديُّن الصحراء لأستاذه وجاج بن زلو: «أمة كانت

---

(1) McDougalll, *The View*, 13.

(٢) البكري، ص ١٦٤.

جاهلة: يخرج أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام فيعزبان في المرعىٰ، فتأتي المرأة حاملًا من أخيها ولا ينكرون ذلك، وليس دأبهم إلا إغارة بعضهم علىٰ بعضٍ وقتل بعضهم لبعضٍ، ولا ديّةَ لهم في الدماء، ولا حُرمة لهم عند الحريم ولا توقيَ بينهم في الأموال»[1].

بيد أن هذه الحالة من عدم تغلغل الدِّين كانت تتغيّر في الأمكنة التي وصل إليها تأثير التجارة العابرة للصحراء واندمجت بفضلها في قيم العصر الإسلامي. كان القادمون من إفريقية والمغرب هم أساس النشاط التجاري في المجال الصنهاجي، ولكنهم لم يحملوا معهم مجرد سلع للتبادل، بل حملوا معهم ثقافةً ودينًا. لقد تركوا نسخة من إسلامهم، الشيعي والخارجي، التي ظلّت في البلاد حتىٰ العهد المرابطي حيث سيتمُّ مسحها بفعل التربية الدينية القسرية لعبد الله بن ياسين. بل وإن التاريخ الإباضي بقي ملحوظًا في الثقافة الصحراوية لوقت طويل، وقد كشفت الوثائق المستخرجة مؤخّرًا عن عمق الأثر الذي تركه الإسلام الخارجي حتىٰ في الفقه والمعاملات[2]. وحتّىٰ في القرن الثاني عشر كان محمد بن أبي بكر الزهري ما زالَ يُكرِّرُ هذه الحقيقة القديمة عندما عرفَ معتقدَ الصحراء في فترة ما قبل المرابطين بأنه «مذهب خرجوا به عن الشرع»[3]. في إشارة إلىٰ عدم سُنية معتقدهم.

كان للبضائع دينها ولم يكن كلّ البربر والعرب القادمين من الشمال خوارجَ فحسب، بل كان فيهم الشيعة الفاطميون المسيطِرون علىٰ نواحٍ كثيرة في الشمال، وخصوصًا في إفريقية (تونس) والجزائر. فمع ازدهار المدينة الجنوبية في المجال الصنهاجي أظهرَ الفاطميون الشيعة ورعاياهم اهتمامًا كبيرًا بالتبادل التجاري معها. وكان تجار إفريقيّة يقْدِمون إلىٰ أوداغست ثم يذهبون منها إلىٰ سِجلماسة

---

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤، ج ٢٤ ص ١٤٢-١٤٣.

(٢) انظر مثلًا: يحيىٰ بن البراء، المجموعة الكبرىٰ لفتاوىٰ غرب الصحراء، (١٢ مجلّدًا)، نواكشوط: الشريف مولاي الحسن ولد المختار الحسن، ٢٠١٠.

(٣) الزهري، الجغرافية، ص ١٢٥- ١٢٦.

للمتاجرة[١]. وكان لهذا بالغ الأثر في ازدهار المدينة، فتغيّرَ الشكل العمراني الجديد لها اتِّباعًا، وسُيِّجَت بحائط صخري كبير علىٰ غرار المدن في الشمال الإفريقي[٢]. ولقد كشفت الحفريات عن حجم التواصل من خلال الكشف في أوداغست عن الكثير من الزجاج والخزف المُصنّع في تونس في ظلِّ الدولة الفاطمية في تلك الفترة[٣]. فأقبل سُكانها عليها واستهلكوها في تجميل المباني وزخرفتها. ولم يكن هذا غير الجزء الأبقىٰ من تأثير إفريقية في الصحراء، ولكن تأثيرها الأبعد أثرًا في المدينة كان ثقافيًا، وتحديدًا دينيًا، وربما أدخل نسبة معتبرة من التشيّع في مجالات مهمة من الصحراء.

إن الصورة عن دين سكان الصحراء فيما قبل العصر المرابطي تبدو صورة غير موحدة في المصادِرِ؛ فمرةً هم غير متديِّنين، ومرةً في دينهم خَلَطٌ، ومرةً هم شيعة أو إباضيون، ومرةً هم سنَّة. ولكن إذا أمكن لنا استخدام ما نعرفه عن نبلاء الصحراء، فإن عملية أسلمة طردية كانت قد بدأت منذ القرن الثامن. فالراجح أن ملك غسط، الذي ذكره اليعقوبي، في أواخر القرن العاشر لم يكن يَدِين بِدين[٤]. ولعلّ تِن باروتان، الذي تختلف التخمينات حول دينه، كان يمثّل مرحلة بينية في مسار أمراء الصحراء نحو الإسلام. أما الأمراء الصنهاجيون اللاحقون له فكانوا مسلمين بشكل لا غموض فيه، عكسه هو. أما الشيء الآخر الذي يعطينا فكرة عن الأسلمة، فهو أن الصورَ القادمة من الأرياف البعيدة التي احتكّ بها عبد الله بن ياسين في القرن الحادي عشر أو ربما نقل عنها الزهري في القرن اللاحق، كانت تحيل إلىٰ قومٍ غير متديِّنين أو حتىٰ غير مسلمين في مقابل الحواضر الصغيرة والاستراحات القوافيلة، حيث كانت عملية أسلمة السكان نتاجًا للالتقاء مع التجار المسلمين. ولم يكن هنالك مثال أفضل علىٰ هذا من أوداغست التي ظهرت بها مساجد كترجمة لدين الشماليين. ولكن الصنهاجيين، سكان الصحراء

(١) نفسه، ص ٢٥٣.

(2) Michael Brett, *The Rise of the Fatimids: The World of the Mediterranean and the Middle. East in the Tenth Century C.E*, Leiden: E. J. Brill, 2001, p, 249

(٣) نفسه، ص ٢٥٣.

(٤) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ١٥١.

الأساسيين، لم يكونوا دومًا مواظبين علىٰ الصلاة أو ملتزمين بالتدين في كلّ حركاتهم وسكناتهم، وربما لم يكن إسلامهم حتىٰ منتصف القرن الحادي عشر غير أمرٍ شكلي؛ بعد عقود من انتهاء صراعات المائة عام سوف نجد أنهم ما زالوا يحتاجون أحيانًا إلىٰ قوة الدولة من أجل ضبطهم علىٰ عادات الإسلام السني بالممارسات الانضباطية القسرية، كما استنتَجَ ذلك عبد الله بن ياسين.

ربما قبل مجيء محمد بن تيفاوت ترشني ثم عبد الله بن ياسين لم يظهر الدين محدِّدًا للتواصل العام بين الشعوب في الصحراء أكثر مما كانته التجارة. وكانت الصحراء حوضًا لأديان وممارسات دينية متعدِّدة، وكانت طريقًا يهيم فيه الشيعة والخوارج، وربما حتّىٰ المعتزلة الواصليون (أتباع واصل بن عطاء، ٧٠٠-٧٤٨ «مؤسِّس» المعتزِلة، الذي بعثَ دعاته في الآفاق المغربية وغيرها) الذين كانوا أقوياء بسلمجاسة، والوثنيون من الصنهاجيين والأفارقة، دون أن تظهر خلافاتهم الدينية أو يسمع بها الرحالة العابرون والأخباريون الذين كانوا صحافة القرون الوسيطة. ولعلّ هذا الغموض أو التضارب الدِّيني تعلّق بتسامح ديني ضمنته البداوة وغياب القانون القسري واستقلالية المجموعات والأفراد، سيبقىٰ قاعدة تاريخية في المجال الموريتاني، ولن يتغير إلا لفترة وجيزة في العهد المرابطي.

ربما لن تظهر علامات التدين السياسي في التاريخ الصنهاجي إلا بدءًا من ترشنىٰ أو ترشنة (محمد بن تيفاوت) الذي يقول لنا الرُّواة إنه كان «تقيًا ورعًا»، وربما كان أول من حجّ من الحكام الصنهاجيين، وبعد حجّته سيُصْبِح الحجُّ رمزًا من رموز الإمارة وسنشاهد نبلاء صنهاجة يحجّون تباعًا: حجّ عمر، والد القائد المرابطي أبي بكر، كما حجّ يحيىٰ بن إبراهيم الجدالي (٦-١٠٣٥) وسيكتسب الحجّ في القرون اللاحقة معاني سامية وقيميّة كبيرة، ربما بفضل حجِّ الأمراء والأعيان الصنهاجيين أنفسهم. ويذكر النويري وفدًا من الملثمين أتىٰ إلىٰ طرابلس الغرب (ليبيا) في عام ١٠٤٧ من أجل الحج. وكان يقوده زعيم من الملثّمين، وقد اجتمع أهل المدينة، التي كانت تعصف بها خلافات أهلية قوية، علىٰ تعيينه أميرًا للمدينة[١]. ومن الواضح أن الحجّ قد بدأ يصبح طقسًا سنويًا في بلاد

(١) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ١٣٦.

الملثّمِين في هذه الفترة، والأرجح أنه لم يكن إلاّ تأكيدًا علىٰ استيفاء التدين في بقية الأركان، وخصوصًا في أوساط معينة.

انعكس تديّن ترشنة السياسي علىٰ علاقات صنهاجة الخارجية، وذهب الجيش الصنهاجي إلىٰ السودان غازيًا، ولكن بهدف ديني هذه المرة: الجهاد. وفي إحدىٰ غزواته الجهادية لقي ترشنة مصرعه في بلاد السودان(١). لم تكن معارك الصنهاجيين مع بلاد السودان جديدة مع إسلام الأوّلين، وإنما كانت سُنّةً صحراوية تعودُ علىٰ الأقل إلىٰ أيام تن باروتان، ويبدو أنها أُسلِمت وتحوّلت إلىٰ جهادٍ بعد إسلام حكام الصحراء. ولم يكن استثمارُ المرابطين فيها إلاّ مرحلة جديدة منها. وكما لم يكن ترشنة أوّل أمير صنهاجي يقود حملة ضد بلاد السودان، فإنه لن يكون آخر أمير صنهاجي يلقىٰ مصرعه في بلاد السودان.

❁ ❁ ❁

كان أغلبية سكان أوداغست في القرن العاشر والحادي عشر من البربر والعرب من سكان إفريقية والمغرب، وخصوصًا من قبائل زناتة ونفزاوة وبرفجانة ونفوسة ولواتة(٢). أما الصنهاجيون -أهل الأرض- فبقوا بدوًا رحلًا غير متحكِّمين في القوافل أو في المنافع التجارية لطرقها ومدنها. كانت زناتة قبيلة بربرية وافرة وقوية استطاعت إقصاء العرب في المغرب بعد عدة ثورات بدأت بثورة ميسرة المطغري الزناتي في أربعينيات القرن الثامن، الذي كان سقّاءً فقيرًا استطاع قيادة موجة تحرُّرٍ وبنىٰ إمارة خوارجية صفرية، واستمرّت ثورتُه بعد قتله وأدّت لاحقًا إلىٰ انتصار الخوارج في بعضِ أصقاع المغرب. وكان للقبيلة الخارجية حضور قويٌّ في جنوب المغرب، حيث كانت تمارس الخفارة وتسيِّرُ القوافل، وأصبحت بفضلها مجتمعًا تجاريًا، ككثير من المجتمعات الطهرية في الغرب والشرق. ونتيجة لطابعهم التجاري، فإنهم قاموا ببناء سجلماسة التي ستصبح أهمَّ مركزٍ تجاري في شمال الصحراء، وحفّزُوا من خلالها التجارة مع بلاد السودان التي

---

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨٢؛ البكري، ص ١٦٤.

(٢) البكري، ص ١٥٨، ١٦٨.

وصلت إليها قوافلهم منذ القرن الثامن[1]. وفي هذا الإطار توطّنت منهم جالية مستقرة ومُراسِلة في أوداغست.

ولكنهم لم يكونوا مجرد مغذِّين لسجلماسة بالتجارة السودانية، بل نقلوا أيضًا الفوائد نفسها إلىٰ أوداغست التي قُلنا إنّها سرعان ما تحولت إلىٰ مدينة تجارية كبيرة بفعل هذه العلاقات[2]. ويبدو أنه كان للخوارج الزناتيين عينٌ علىٰ المدن ذات الثروات الفضية والنحاسية والذهبية. فقد بنوا في مكان ما من الصحراء مدينة ثرغية، التي مثلها مثل أوداغست كانت مدينة منجمية، وكان بها «معدن كبير للفضة»، كما يقول المسعودي في **مروج الذّهب**[3]. ولعلّ ما جمعها بأوداغست أنهما كانتا هبةً ومأوىٰ للمجتمعات المهاجرة المتاجرة، التي أقامت بها طلائع اجتماعية ومستوطَنات لها، مثلها في ذلك مثل المجتمعات التجارية التي ازدهرت في الشمال في العقود السحيقة مثل الفينيقين والقرطاجيين القادمين من الشام.

❀ ❀ ❀

ابتداءً من فترة التوافد التجاري لأوداغست، بدأ القادمون إلىٰ أوداغست في تغيير أنماطِ التدّين والجماليات والذوق والرفاه السائد في الصحراء من خلال الدعوة والتجارة ونمط العمران الجديد الذي أظهروه في المعمار وجعلوه يرتقي به من مقام القرىٰ والآبار إلىٰ مقام البلدة والمدينة. وابتداءً من القرن العاشر إلىٰ سقوط المدينة في أيدي المرابطين، سيُغيِّرُ تفاعل المهاجرين القادمين من حضارة الشمال مع الصحراويين والسودانيين كلّ شيء في المدينة من الشكل الخارجي

---

(١) ابن حوقل، ص ١٠٢-١٠٣؛ انظر أيضًا أخبار الرستميين لابن الصغير الذي كتب كتابه في عام ٩٠٢م، والذي يتحدث فيه عن ازدهار علاقات دولة تاهرت بالسودان.

(2) James A. Miller, "Trading Through Islam: The Interconnection of Sijilmasa, Ghana and the Almoravids Movement", in Julia Ann Clancy Smith, *North Africa, Islam and the Mediterranian World: from the Almoravids to the Algerian War*, p. 51.

(٣) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق توم بريمر، باريس، ١٩١٦، ص ٣٧٠.

إلىٰ نوعية المأكل والملبس[1]. ولم يأتِ ابن حوقل إلىٰ المجال إلا وكانت تجارة أهل الشمال قد تطوّرت وتطوّر ما كانوا يقدمونه للجنوب. وإذا كان هذا الجغرافي قد أشار إلىٰ حالة العري في الصحراء، فإن التجار الشماليين كانوا يأتون إليها بالثياب من خلال تجارة الصوف والملابس المخيطة والمصبوغة بالألوان الزرقاء والرمادية والبيضاء والسوداء، التي كانت تُنقل من جبل نفوسة وجبل بركة وميناء طرابلس والأجدبية (غرب ليبيا ووسطها). وكانت تمرُّ بطرق ومسارات معقّدَة؛ فكانت تُنسَجُ في كور وزويلة (جنوب وسط ليبيا) وكانيم (شمال النيجر والتشاد وجنوب ليبيا)، وتنقل في القوافل إلىٰ الشمال وإلىٰ الجنوب في الصحراء من أجل شراء العبيد في زويلة[2].

علىٰ أنه من الخطأ الاعتقاد أن كل التأثير في أوداغست كان تأثيرًا شماليًا. وصحيح أن زوار المدينة نقلوا للبكري أنها كانت مسكنًا للمغاربة، غير أن القادمين من الجنوب إليها كانوا كثيرين أيضًا كما تشهد علىٰ ذلك دور الحِرف السودانية التي كشفت عنها الحفريات في المنطقة، خصوصًا في الجزء الجنوبي من المدينة. ومن المحتمل جدًا أن سكان أوداغست الميسورين قاموا باستيراد العمال المزارعين من بلاد السودان ليعملوا لهم في تعهُّد البساتين والواحات وإنتاج الحبوب. فلم يكن الصنهاجيون ولا البربر التجار مزارعين يحملون المنجل، بل كانت علاقاتهم مع السودان تكمن في ضرورة الجنوب وحيويته

(١) نفسه.

وأيضًا:

Lewicki, T. "L’Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIII et au IX siècle", *Cahiers d’Etudes africain*, 1962, 2, 513-35.

وأيضًا:

Denise Robert, Serge Robert et Jean Devisse, *Tegdaoust I. Recherches sur Aoudaghos.* Paris: Arts et métiers graphiques, 1970.

(2) Michael Brett, The Rise of the Fatimids: The World of the Mediterranean and the Middle. East in the Tenth Century C.E. Leiden: E. J. Brill, 2001,253.

للمقايضة وللمحاصيل الزراعية، الضرورية للتغذية[١]. وقد عزّزَ من هذا الاختلاط أيضًا الحاجة للعبيد الذين كانوا أيضًا من حاجة المدينة التجارية وشرطًا لأعبائها. ونتيجة لهذا، فإنها أصبحت تتوفر علىٰ الآلاف من الذين يُشبِعون الحاجيات الخدمية والنخاسية والجنسية. وكانت الجواري -اللواتي وصفهن البكري بأنهن كن مثيرات جنسيًا- ضروريات للتمتّع[٢].

وصحيح أن هؤلاء السود كانوا -ككلّ المجموعات- أصحاب ثقافة وفنٍّ وفلكلور، ولكن تأثيرَهم الثقافي كان يختلف عن التأثير الثقافي لسكان الشمال؛ ذلك أنهم لم يكونوا فاتحين أو أصحابَ سلطة أو تجارًا وإنّما كانوا في كثير منهم عبيدًا مستجلَبين أو كانوا أُجَرَاء جلبوا معهم ثقافة خدمية وطبخية وعمالية. ولعلّ تجار الشمال نظروا إليهم أنهم أشياء أكثر ممّا كانوا ذواتًا. وقد ساهم هذا في النخاسة المُستوفَدة من الجنوب إلىٰ الشمال. وهو أمرٌ حدث في المجال أولًا بفعل الإباضيين الذين احتكروا تجارة العبيد، خصوصًا في القرن العاشر[٣]، ثم بفعل الزناتيين اللاحقين، إباضيين أو غير إباضيين، الذين قدموا إلىٰ المجال السوداني بحثًا عن العبيد وانطلقوا أولًا من الشمال الإفريقي إلىٰ السودان الإفريقي في الوسط في بحيرة تشاد، سالكين الخط الرابط بين طرابس وزويلة. ثمّ التَحَق بذاك الخط الشرقي خطٌ آخر في الوسط من الشمال إلىٰ الجنوب، يمرُّ من إفريقية إلىٰ تادْمكّة (شمال مالي، قرب كيدال الحالية) مرورًا بورغلة. وفي الغرب ازدهر خطٌ سِجلماسة إلىٰ النيجر مرورًا بمجالات موريتانيا فالسودان. ستتنافس هذه الخطوط الثلاثة في تقديم البضائع جيئة وذهابًا، غير أن الخط الصنهاجي والخط الموازي له من إفريقية سيكونان الأكثرَ ازدهارًا ودخلًا من تجارة العبيد[٤].

❁ ❁ ❁

---

(1) E. Ann McDougalll. 1985. The view from Audagust: Warriors, Clerics and Merchants in Southern Saharan Society, 8th through 15th Centuries. JAH 26: 1-32

(٢) البكري، ص ١٥٨.

(3) E. Savage. Berbers and Blacks: Ibadi Slave Traffic in Eighth-Century North Africa. *The Journal of African History*, Vol. 33, No. 3(1992), pp. 351-368

(4) Michael Brett, The Rise of the Fatimids, p, 249.

كأي مدينة كانت أوداغست تحتضن معالم الاختلاف والتوحد. فقد كان يجمع أهلها تربية عامة كان أساسها الثقافة التبادلية ذات الطابع التجاري، ولكنها كانت أيضًا تربية روحية نسجها الدين المُشترَك؛ فالإسلام قد أصبح منتشرًا بفعل وجود مسجد مركزي جامع وعدة مساجد صغيرة. ولعلّ نواة الإسلام المدني «الموريتاني» ظهرت لأول مرة هنا وليس في بقية الصحراء، حيث تحدّث البكري عن أول مدرسة مسجّلة في التاريخ الموريتاني: المساجد «الآهلة» التي يتعلّمُ فيها الأطفال القرآن من المعلِّمين الكثر[1]. ومن الواضح أن لغةً تواصلية جمعت أيضًا سكان المدينة. غير أن التقاطيع المفرِّقَة بين عناصر المدينة كانت قائمة هي الأخرىٰ، ونُخمِّن أنها كانت أكثر كذلك مما كانت تسود -نظريًا- في بقية المجتمع القبلي في الصحراء؛ إذْ نفترضُ أن «ديمقراطية» القبائل -المتزعمة لأصول مشتركة ومتساوية، وأفقية الحياة الرعوية- كانت ترسِّخ مساواة معينة. وبعكسها تبدو أوداغست ذات تراتبية طبقية واقتصادية ووظيفية، وكانت محسوسة في الحياة اليومية بتفاصيلها الدقيقة.

وربما لم يكن هنالك مقامٌ اتضحت فيه التمايزات الفئوية بأكثر من الحياة اليومية والمنزلية من اللبس إلىٰ المذاق. كانت الطبخة السائدة في صحون أغنياء المدينة، القاطنين في شمالها، الثريد المغذّىٰ بالمرق ولحم البقر أو الضأن التي لم تكن غالية كثيرًا بفعل ازدهار تجارة القطعان ووفرتها في المدينة. أما في جنوب المدينة -حيث انحشَرَ الفقراء، الذين كان جلّهم سودًا- فقد ذاعت حمية مختلفة أساسُها الطعام المُعدّ من الذرة والدُّخن (البِشنة) الذي كانوا ينتجون منه كعك الزنار والعجائن التي ربما كانت تُمذق باللبن (لعلّ مشتقاتٍ من الوجبة ما زالت موجودة حاليًا في موريتانيا ومعروفة باسم «**العيش**») إضافة إلىٰ العسل الذي كان متوفرًا وكان يجلب من أرض السودان. كشفت الحفريات عن أوانٍ يُعتقَدُ أنّها خاصة بعجائن عسل الزهر، وما زالت هذه الأواني نفسها تُستخدَمُ في الجنوب السوداني لطبخ كعك الزنار. وكشفت الآثار عن مخازن الحبوب في المدينة وعن وجود آلات الطحن: الرُّحِي (جمعُ رَحىٰ) والطواحين اليدوية

---

(١) البكري، ص ١٥٨.

الصغيرة، وهو ما كان يعني شيوع واستهلاك القمح والذرة بوفرة[1].

ولم يكن ما يميّز الفقراء والأغنياء مجرد فروق بين ناس يأكلون القمح وآخرين يأكلون الذرة، بل كان بين من يملِكون الموارد ومن يعملون عليها. كان أغنياء المدينة - الذين أشار إليهم البكري بـ «أهل اليسار» - طبقة متعدِّدة الموارد، فإضافة إلىٰ أنها كانت طبقة من التجار فإنها كانت طبقة ملاك عبيد. وفي الوقت نفسه الذي كانت تستثري فيه من التجارة، فإنها كانت تمتلك أرصدة ثابتة ومنازل فسيحة ولها خدمها وأجراؤها. ولعلها كانت مزيجًا من «برجوازية» متاجرة وأرستقراطية مالكة للأراضي وللعبيد وللقطعان، وإن كان جلُّ مداخيلها من التجارة - النشاط الأهم في المدينة؛ ذلك أن سوق هذه الكبير كان معمعة تجارية يومية تدور في المرابحات والمفاوضات التجارية بأعلىٰ الأصوات. وحتىٰ في الأندلس عرف البكري أن ضجيج سوق أوداغست كان يمنع المحدِّث من سماع القريب منه[2]. وكان متوسط حجم المعاملات بين الجنوب الصحراوي والممالك المجاورة يصل إلىٰ أرباحٍ خيالية، فقد رأىٰ ابن حوقل صكًا لتاجر من سِجلماسة يدين فيه بمبلغ ٤٢٠٠٠ دينار لتاجر في أوداغست[3]، وهو مبلغ خيالي بالنسبة إلىٰ رجل واحد، وقد علّق عليه الرحالة النصيبي -الذي شاهد أمورًا كثيرة- بأنه لم يسمع بمثل هذا في المشرق والمغرب، كما أنه حدّث به في العراق وفارس وخراسان (إيران) فأثار الأمر الاستغراب. وعلىٰ العموم، فقد كان هذا النشاط يأتي بأرباحٍ فاحشة علىٰ المدن التجارية البعيدة، بحيث إن سجلماسة وحدها ستُؤمِّنُ ٤٠٠٠٠٠ دينار للعام من الضرائب علىٰ القوافل وحدها في القرن العاشر[4]. من هذه العلاقات التجارية عبر طريق القوافل ولدت «البرجوازية»

---

(١) البكري، ص ١٥٨.

J. Devisse, "Trade and Trade Routs in West Africa. Unesco International Scientific Committee for the Drafting of a General History of Africa," *General History of Africa: (vol III) Africa from the Seventh to the Eleventh Century,* 367-436.

(٢) البكري، ص ١٥٨.

(٣) ابن حوقل، ص ٩٩.

(٤) نفسه، ص ٩٩-١٠٠.

الأوداغستية. ولقد أظهرت الدراسات الحديثة أنه لولا الطرق التجارية وتنقُّل التجار عبر القوافل لما نشأت المدن التجارية في جنوب الصحراء. لقد أسس رايمون موني لهذه الحقيقة، ولقد أصبحت مرجعًا مسلمًا به لدىٰ الباحثين اللاحقين[١].

ولم تكن أوداغست مجرّد إقامة موسمية لهؤلاء التجار، وإنما استثمروا كثيرًا في الاستقرار فيها برغم أجوائها غير الصحية. فقد نقل البكري -وربّما مبالغة- أن غالبية سكانِها كانوا مصابين بأمراض الصفراء، البادية علىٰ ملامِحِهم، وأمراض الحمىٰ والتهاب الطحال[٢]، فلا بدّ أنهم وجدوا فيها تعويضًا كبيرًا. ولعلّ أوّل التعويضات كانت منازِلهم المريحة، التي كانت تُعوِّضُ عن الأجواء خارِجها. فمع القرن العاشر تغيّرت إقاماتهم من أكواخٍ إلىٰ منازل من الطين والقرميد، واصبحت تتوفّر علىٰ الباحات والبساتين ومزوِّدات الماء وتُحاط بالأخشاب. كما بدأت تستفيد من أنظمة صرف المياه متمثِّلة في قنوات تظهر في كل الباحات، وأصبحت الآبار مجهّزة بجدران تحميها في داخلها توقيًا لانهيارها[٣]. وتتصادف هذه الفترة مع طفرة في استخدام أعمال الحدادة وفي نمو مخزون الماعز والضأن بشكلٍ ملحوظ، بحيثُ إنها أصبحت تؤثِّرُ في المساحة الخضراء بالمدينة، ما كان له تداعيات ملحوظة علىٰ البيئة[٤].

أما فقراء المدينة فكانوا طبقات مختلفة من المزارعين والمنمين والحرفيين والعمال وناقلي الأملاح والحمالين والعبيد، ولكنهم كانوا سواسية في الفقر وتواضع المداخيل والممتلكات، وأصبحوا يشكِّلون «طبقة عاملة» مرتبطة برفاهية التجار والملاك الأغنياء. بعضُهم كان مجموعة من منمّي الغنم. ولا شكّ أنّهم كانوا يزدادون مع تزايد ثروة أوداغست من الماشية. البعض الآخر كانوا مزارعين، وهو الأمر الذي ربما كان أكثر قدرة علىٰ درِّ المال من مجرد تربية القطعان، وخصوصًا إذا كانت زراعة للقمح، الذي كان غاليًا وقد تم استقدام

(1) Tableau geographiaue, 156.

(٢) البكري، ص ١٥٨.

(٣) نفسه، ص ١٠.

(4) McDougalll, *The View*, 12.

المزارعين إلىٰ أوداغست[١]، للالتفات علىٰ غلائه؛ فقد وصل سعره إلىٰ ستة مثاقيل، وهو سعر باهظ لأن مثقالًا واحدًا كان يشتري عددًا من الخراف[٢]. لهذه الأسباب غاب القمح من غذاء الضاحية الجنوبية لأوداغست. ولكنّ غلاوته سرعان ما شجّعت المزارعين الفقراء، أو مُشغِّليهم الأغنياء، علىٰ العمل علىٰ إنتاجه وبيعه إلىٰ من يدفع مالًا أكثر. ومن الأرجح أن قيمته الاجتماعية كانت كبيرة؛ إذ كان دليلًا علىٰ التميّز عن الفقراء المقتاتين علىٰ عصائد الدخن. وكان من مهام المزارعين سقي الحرث بالماء المجلوب بالدلاء وتعهُّد النخل وسنابل القمح والذرة وبساتين التين وكروم العنب، الموجودة بنسبة قليلة، إضافة إلىٰ الحناء الذي كان يستخدم استخدامات تجميلية وطبية عديدة[٣].

ومن بين فقراء أوداغست كان الحمالون، ولكن وظيفتهم لا تبدو منعزلة عن بقية الوظائف. كان بعضهم يحمل الملح. وكان هذا «**عصر الملح**»، باعتباره الثروة الأساسية للصحراء ومصدر استقطابها للثروات خارجها، وهو خيار استيراتيجي سيبقىٰ قائمًا حتىٰ ما سيعرَفُ بـ«**عصر الصمغ**» بعد قرون. وعلىٰ العموم، فقد بدأ الغسطيون الأوائل في تصفيح الملح والتجارة به مع الممالك السودانية التي كانت تعتمد عليه بشكل استراتيجي. غير أن نمو المدينة جعل الملح «لا يوفي المدينة احتياجاتها»؛ ذلك أنها كانت تتوفّر مع القرن العاشر الميلادي علىٰ سبخة أو مملحة واحدة[٤]. أما الباقي فلا شك أنه كان يأتي من السباخ المجاورة والواقعة في أرض مسوفة (تغازة)[٥]، وهو ما رفع من الحاجة لحمالي سبائك الملح وناقليها.

ولعلّ أهم شريحة من العمال الحرفيين كانت شريحة العاملين في مجال الذهب، الذي كان أهم نوع من النقد في الصحراء. ولكنه كان نقدًا يتم إنتاجه،

---

(١) البكري، ص ١٥٨.

(٢) البكري، ص ١٥٨.

(٣) البكري، ص ١٥٨.

McDougalll, *The View,* 7.

(٤) نفسه، ص ١٢.

(٥) بوفيل، ص ٦٨.

بدلًا من إصداره أو طبعه، وكان يحتاج إلىٰ طبقة من الحرفيين السكاكين، التي كان أساسها العبيد. وصحيح أنه ارتبط بمقايضته بالملح ببلاد السودان، وبالتالي فقد كان يعود إلىٰ المدينة بنشاط تجاري أكثر منه إنتاجيًا، وبالتالي ارتبط بالتجارة القوافلية أكثر من ارتباطه بالعبيد، إلا أن هذا لم يعد كذلك خصوصًا بعد القرن العاشر عندما ارتفع الطلب الشمالي علىٰ الذهب بسبب ثراء التجارة الإسلامية، وارتفعت قيمة الذهب في العالم الإسلامي بسبب استهلاكيات «البرجوازية» العربية والاسلامية العريضة في قلب العالم الإسلامي. وقد تولّدت من هذه القيمة أنشطة تجارية مهمة تمثّلت في التجارة المسلمة في النوبة وآسيا المتمركزة علىٰ الذهب وعلىٰ المقايضة به. وابتداءً من القرن العاشر، سيبدأ التجار المسلمون في سبك الذهب في إفريقية وفي سجلماسة[١]. وفي هذه الفترة اخترع الأوداغستيون تكرير الذهب الخام القادم من غانا في أوداغست وبدأوا في تصديره إلىٰ الشمال. وهو ما كان يعودُ بنتائج في غاية الجودة، حيث اعتبر البكري أن ذهب أوداغست كان «أجود ذهب أهل الأرض وأصّحه»[٢]. وقد ولّدت هذه الرغبة التجارية الجديدة حاجة إلىٰ مجتمع من العبيد المنجميين السبّاكين والسّكاكين، فتزايدوا في ضاحية المدينة الجنوبية تلازمًا مع توسع تجارة الذهب. وتُظهِرُ الحفريات تطوّر مناجم الذهب في المدينة من عصرٍ إلىٰ عصر بشكل طردي، حيث أصبحَ سلعة سودانيّة ذات قيمة مضافة في أوداغست، هي سبائك الذهب المُصفّىٰ. وإلىٰ اليوم ما زالت آثار الأعمدة الدوّارة موجودة في بقايا المدينة شاهدةً علىٰ تاريخ صناعة الذهب[٣].

ومما تخصّصَ فيه حرفيو أوداغست تجارة أخرىٰ مُرافِقة للذهب ومربحة، هي النحاس. ورغم أن المواد النحاسية لم تكن تُستخرجُ من المدينة، إلا أن معامل صناعِها كانت تحوِّل المنتجات القادمة من خارج المدينة وتُكرِّرُها، ما يمكن استنتاجه من آثار صناعة الميداليات والجواهر التي وجدت في معامل المدينة.

(١) أبو الحسن علي عبد الحسين بن علي المسعودي، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ١٩٦٦، ص ٨٩.

(٢) البكري، ص ١٥٩.

(3) J. Devisse. *Trade and Trade Routs*, 385-390.

ولعل أهم انتصار اقتصادي للأوداغستيين، الذي حتمًا أدّىٰ إلىٰ تأثيرهم في المملكة الجنوبية المزدهرة (غانا)، كان قدرتهم علىٰ إنتاج الأسلاك النحاسية التي كان يتداولها الغانيون علىٰ أنّها عملة لتبادل البضائع وشرائها وبيعها (هذه الحقيقة لم يتم تأكيدها وإن كان الدكتور سيرج روبير يتبناها كنظرية مهمة)(١).

وعلىٰ العموم، فقد كان هؤلاء العمال الحِرفيون يستخدمون الأفران الكبيرة في معاملهم بغرض إذابة مجاذيف الحديد لاستخدامها في إنتاج المواد؛ وبفضل هذا كانوا يُعامِلون الفخار والخزف والمواد والآليات الزراعية. وفي القرن التاسع والعاشر -قبل الفورة السكانية السريعة للمدينة- كان المنتوج الصناعي من الحديد والنحاس يغطي حاجة أوداغست ويُصدر إلىٰ مستوىٰ جهوي، ما حدا بالباحث دفيس إلىٰ الجزم بأن المدينة لم تعتمد فقط علىٰ تبادل الملح والذهب، بل إنها كانت علاوة علىٰ ذلك مدينة حِرفية(٢).

إلا أنه من الواضح أن الطبقة الحرفية لم تكن تمتلك آليات التطور إلىٰ طبقة مستقلة ومالِكة لوسائل الإنتاج؛ إذ ظلّت الصناعة الأوداغستية ملكَ التجار وهبة الازدهار التجاري وتسويق البضائع وامتلاك القوافل. وإضافة إلىٰ هذا، فإن المواد الحِرفية لم تكن أُسَّ تجارة أوداغست. وصحيح أن هؤلاء الحرفيين كانوا يضمنون مواد مهمة لاقتصاد المدينة، إلا أن هذا لا يجعلنا نعتقد باكتفاء ذاتي يغطِّي حاجية التجارة والمقايضة؛ إذ إن المدينة ظلّت تواصل استيراد كثير من المواد الحرفية.

❁ ❁ ❁

في أسفل الهرم السكاني كان يوجد العبيد. والواقع أن التصنيفات تتداخل كثيرًا بين من وصفناهم بالعمال والحرفيين وبين العبيد المملوكين. فبالنسبة إلىٰ تجار الصحراء لم يكونوا مجرّد خدم لتسهيل المآرب المنزلية، بل كانوا بالنسبة إلىٰ مُلاكِهم بضائع تُنتِجُ البضاعة وتصلح للتجارة ولاستدرار التمويل. أما بالنسبة إلىٰ مبتاعيهم فقد كانوا مصدرًا للرفاهية المنزلية، وقد لاحظ البكري أن المدينة

---

(١) نفسه، ص ٤٢٢.

(2) McDougalll, *The View*,11.

كانت مليئة بالجواري والعبيد الخبيرين في الطبخ. وكانت الجواري السودانيات يُبَعنَ بمائة مثقال للواحدة نظرًا لخبرتهن في الطبخ. وربما كان العبيد يُستجلبون بالغزوات التي كان يشنُّها مقاتلو الصحراء في الجنوب العامر بالسكان كما حدث في غزوتهم لمدينة أكوام السودانية. ونعرفُ من هذه الغزوة بشاعة الاستعباد في أعين السودانيات اللواتي قاومنه بالانتحار. ولعل هذه الهجمات كانت تتكرّر دومًا بحيث نقل البكري - بمبالغة - أن الملك الغاني كان يمتلك جيشًا من ٢٠٠٠٠٠، أربعون ألفًا منهم نظاميون، وكان يضطر إلىٰ استصراخ المزارعين لدرء الهجمات كما كان يستخدمهم في حملات الاستعباد(١).

في أحيان معينة وصلت أوساط في أوداغست إلىٰ وفرة طاغية في امتلاك العبيد، فكان أغنىٰ أغنيائهم يمتلكون مئات العبيد وربما أكثر، حيث تشير شهادة البكري إلىٰ ألف عبد في حوزة بعض الأعيان. ولا نعرِفُ هل كان حرفيو المدينة أحرارًا عمومًا، ولكننا نعرِفُ من الحفريات أن كثيرًا منهم كانوا عبيدًا في القرن التاسع والعاشر. وربما تطوّر العبيد إلىٰ الطبقة الحرفية التي عملت في صناعة الحديد والزجاج والخزف والثياب. ولعلّ العبيد السودانيين كانوا معروفين عمومًا في الأصقاع الإسلامية بقُدراتِهم علىٰ تصنيع الخزف؛ إذ يقولُ لنا أبو الفرج الأصفهاني إن الشاعر العباسي أبا العتاهية (٧٤٨-٨٢٥) في بغداد كان «له عبيدٌ من السودان، ولأخيه زيد أيضًا عبيدٌ منهم يعملون الخزف في أتونٍ لهم»(٢). ولعلّ هذه الاستخدامات تطوّرت في الصحراء، مصدر كثيرٍ من هؤلاء العبيد؛ وإلىٰ اليوم ما زالت الحفريات تشير إلىٰ تمايز بقاياهم عن بقايا البربر والعرب: جماجمهم المختلفة واختلاف قبورهم وأوانيهم وأغذيتهم وانعزالهم في جنوب المدينة(٣).

---

(1) Ian Blanchard, *Mining, Mettallurgy in the Middle Ages. Vol: 1: Asiatic Supermacy*. Stutgart: Steiner, 2001, 140.

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، تحقيق إحسان عباس ورفيقيه، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٨، ج ٤ ص ١٠.

(3) Susan Keech McIntosh, Tools for Understanding Transformation and Continuity in Senegambian Society 1500-1900, DeCorse, C. R. (Ed.) *West Africa During the Atlantic Slave Trade*. New York: Continum, 2001, 14-37.

رغم هذا لم يكن العبيد سودًا حكرًا. ولم يكن الاستعباد رهنًا بهجمات العرب أو البربر، وإنما كانت الغزوات الاستعبادية أيضًا أمرًا شائعًا في بلاد الصحراء. وفي أيام البكري كانت النخاسة البيضاء أوضح مما يمكن للمسح الحفري أن يكشف الآن عنه. فلم تكن الحاجيات النخاسية لمجتمع الرفاهية في أوداغست مقتصرة علىٰ اليد العاملة، بل كانت تتخلّلها رغبات التمتّع الجنسي. واستجابة لهذه الرغبات ازدهرت تجارة الجواري البيضاوات اللواتي كان واضحًا أنهن كن يجلبن من الشمال أو من الشرق وكان الأوداغستيون يستغلونهن في التسري(١).

ربما لم تكن تجارة العبيد في أوداغست أمرًا مربحًا كما أظهرت الدرسات الحديثة(٢)، ولكنها استمرّت رغم هذا. وفي القرن الثالث عشر كان تجار المغرب الأقصىٰ ما زالوا يؤوبون بالعبيد من بلاد التكرور جنوب نهر صنهاجة أو نهر السنغال(٣). وربما يعود ضعف تجارة العبيد إلىٰ أن الطريق القوافلي الموازي الذي كان يمرُّ عبر وسط الصحراء من تونس وفزان إلىٰ مالي وتشاد -وهو كان الخط الأكثر تخصصًا في تجارة العبيد- قد تعرّضَ للبوار والعطالة. غير أنه كان مزدهرًا في القرن السابع عندما اكتشفَ الأغالبة ضرورة استجلاب العبيد السود لتخفيف الضغط النابع من تعبيد السكان المحليين ولأغراض سلطانية أخرىٰ. وفي القرن التاسع والعاشر كان السلطان الأغلبي إبراهيم الثاني (٨٧٥-٩٠٢) في حاجة ماسة للعبيد لاستخدامهم عسكرياً كما أن أحمد بن طولون (٨٦٨-٨٨٤) أرسل في طلب العبيد من جنوب النيل ومن التشاد. وربما يعود استمرار هذه التجارة إلىٰ أنها بقيت تدرُّ دخلًا للمنخرطين القلائل فيها، كما أنها كانت تنمو فجأة وتخبو. وربما كان سبب هذا هو الطلب عليها من الشمال. ومع القرون اللاحقة سنرىٰ أن القوافل القادمة من أوداغست واصلت جلب العبيد لبيعهم في المغرب، حيث بدأ المرابطون فالموحدون في تجنيدهم واستخدامهم عسكريًا.

❁ ❁ ❁

(١) البكري، ص ١٥٨-١٥٦.

John Hunwick. West Africa, Islam and the Arab world, 65.

(2) J. Devisse. *Trade and Trade Routs, 382.*

(٣) الإدريسي، ص ٤.

رغم هذا التباين بين فقراء المدينة وأغنيائها، إلا أن جوهر الانقسام في أوداغست لم يكن صراعًا طبقيًا؛ بل كان انقاسمًا بين أغنياء المدينة أنفسهم. وربما كان صراعًا سياسيًا علىٰ أساس هوياتي يتعلق بالخلافات بين العرب والبربر، الذين كانوا «متباغضين متدابرين»، كما أخبر بذلك البكري[١]. كان شعوب المدينة ينتمون إلىٰ قبائل مختلفة من البربر: من لواتة وزناتة ونفيسة ونفزاوة (قبيلة من البربر كانت تنتمي لكتامة، التي كانت تحتكر التجارة في قسنطينة في الجزائر) إضافة إلىٰ الحضور العربي القوي. وربما كانت الخلافات بين هذه المجموعات هي ما ساهم في تسهيل سقوط المدينة في أيدي قائد المرابطين، عبد الله بن ياسين[٢].

❁ ❁ ❁

لقد بقيت أوداغست معجزة الصحراء ليس بسبب عبيدها أو أسيادها؛ وإنما بسبب موادها ودورها في ربط التجارة بين الشمال والجنوب. كانت كلّ مواد المدينة، مالم تكن زراعةً وماشية، هي بغرض المقايضة مع الجنوب والشمال. كانت قوافل الملح الحيوية التي تذهب إلىٰ السودان تعود بالبضائع الجنوبية من جلود الغنم المدبوغة والمصبوغة والأبنوس (الخشب الأسود) والصمغ والسياط الجلدية والعاج والجلود والدروع الجلدية والعبيد. وكانت هذه القوافل تواصل سيرها إلىٰ الشمال فتعود ببضائع المسلمين من النحاس والخشب التفاحي وثياب القطن والصوف والجواهر النحاسية والخرز المرجاني والقواقع الصغيرة النادرة التي تستخدم للتجميل والتمر والزبيب والزجاج والأواني الزجاجية والخرز والفخار المصقول. نعرف هذه الحركة القوافلية بالحفريات[٣]. ونعرف أن القوافل القادمة من سِجلماسة كانت تعود بالنحاس الأصفر والقمح والفواكه والثياب. أما من الساحل فكان يأتي الملح والعنبر[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) البكري، ص ١٦٨.

(2) Bovill, 73.

(3) Peter Mitchel. *African Connection: an Archeological Perspective on Africa and the Wider World*. Oxford: AltaMira Press, 2005, 154.

(4) Bovil, 70.

ولكن في أطراف المجتمع الصحراوي كانت التطوّرات العسكرية والسياسية تهدِّدُ المجتمع التجاري بأوداغست. في فترة القلاقل التي تحدث عنها ابن أبي زرع وابن خلدون ضعف سلطان الصنهاجيين وخرجت أوداغست عن سلطتهم لصالح الغانا، الملك في بلاد السودان. في المقابل بدأت حركة إحيائية وسط الصحراء، وخصوصًا في شمالِها في تيريس وآدرار، في التبلور: المرابطون. ابتداءً من القرن الحادي عشر بدأ هؤلاء البدو الصنهاجيون في تعلم الإسلام من مصادره السنية بعيدًا عن ترجماته الثقافية القائمة في مجتمع الصحراء، وذلك بعد زيارة قام بها قياديوهم إلىٰ الحجاز ثم إفريقية (تونس). رفضوا الإسلام الخارجي والشيعي في الصحراء وحرصوا علىٰ تطبيق الدين بشكله «الصحيح». وسرعان ما تحوّلت هذه الحركة إلىٰ جيش جهادي. وفي عام ١٠٥٤-١٠٥٥ داهم المرابطون أوداغست في حملة عنيفة. وفي القرن الحادي عشر لم يكن صوت البكري يخلو من نبرة تعاطف مع المدينة، وهو يتحّدث عن الاجتياح:

> استباح المرابطون حريمها وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئًا. وقتل فيها عبد الله بن ياسين رجلًا من العرب الموَلِّدين من أهل القيروان معلومًا بالورع والصلاح وتلاوة القرآن وحجِّ اليبت يسمىٰ زبافرة. وإنما نقموا عليهم أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه(١).

رغم هذا الاجتياح لم يشكِّل المرابطون انتكاسة للتجارة وللحياة المدنية في أوداغست؛ فمع الهجوم انتهت المرحلة المعمارية الثالثة من تاريخ أوداغست. إلا أن أهلها سرعان ما أعادوا إعمارها في العام نفسه الذي دُمِّرت فيه زعمًا. وقد جاءت مشاكل المدينة من فترة ما بعد المرابطين، وبالأخص من البيئة. فالمشاكل البنيوية -كما تُظهِرُ الحفريات- تزامنت مع السيطرة المرابطية وأدّت إلىٰ أزمة في استقدام المياه. فقبل هذه الفترة بمدة كان سكان المدينة يعيشون فترة رفاهية من حيث توفر المياه، إذ توفّرَ لكل باحة منزل بئرٌ دائري. ولكن الآبار ستبدأ في النضوب مع منتصف النصف الأول للقرن الحادي عشر، بحيث إن السكان اضطرّوا للحفر عميقًا من أجل الحصول علىٰ المياه. كما أن المياه الكثيفة (وربما

---

(١) البكري، ص ١٦٨.

الفيضانات) التي اجتاحت المكان أصبحت تفيض من قنوات صرف المياه وبدأت تلوِّثُ الآبار، وربما ساهمت في انتشار وباء الملاريا في المنطقة. بقيت آبار من هذه الفترة إلىٰ القرن الرابع عشر، ولكن جلّها تلوّث واستُعيضَ عن خدماتها[1]. ثم استغنت الصحراء عن إحدىٰ أكثر مدنها ازدهارًا، ولم تبقَ غير ركام.

(1) McDougalll, *The View*, 10-11.

- ٦ -

المجتمعات المُهمّشة والتابِعة: البافور والحراطين والساميون

«ولا ملك فيهم ولا ملك عليهم، بل هم ممحونون من جميع الطوائف المجاورين لهم»

الإدريسي

في الوقت الذي كان فيه البربر القادمون والعائدون من الشمال يتوسّعون في الأرض ويستفيدون من خيراتها، كانت شعوب أخرىٰ وتشكيلاتٌ اجتماعية -كثير منها من البربر وبعضها مجهول الهوية- تعيش وسط المفازة الكبرىٰ وفي واحاتها الصغيرة. كانت حركتهم محدودة ولم تكن لهم احتكاكات تجارية بالرحالة والكشافة العرب الذين غطّوا الحياة الصحراوية ولم ينقل عنهم كثيرٌ من مؤرخي العرب الموسوعيين ما بين القرن الثامن والرابع عشر من ابن عبد الحكم إلىٰ ابن بطوطة إلا نادرًا جدًا كما فعل الزهري، الذي تحدّث عن البربر السود. وفي ظروف قليلة سيتمّ امتصاص هؤلاء في الحراك الاجتماعي وفي التغيرات الثقافية-الدينية-العرقية، بحيث لن تبقىٰ لهم صورة واضحة خارج التخمينات. ومن المؤكد أنهم لغز التاريخ الموريتاني الأهم.

في منطقة الواحات التي كانت خصبة عاش في الفترة ما قبل الميلادية والفترة الوسيطة، عاش شعب من المزارعين في منطقة تگانت وآدرار والعصابة[1]. ورغم أن الإحالات التاريخية إلىٰ هذا الشعب كانت ضئيلة في الروايات التاريخية، إلا

(1) McDougalll, *The View*, 34.

أن حضوره واستذكاره في التقاليد الشفهية كان مهمًا. بل إن الفضل في الكتابة عنه يعود أساسًا إلىٰ تدوين التقاليد الشفهية في فترة الاستعمار عن البافور والحراطين(١). كان شعبًا غامضًا بالنسبة إلىٰ المعارف الحديثة، بل إن الروايات تختلف حول أشكالهم وألوانهم ويتداخل فيها الأسطوري بالحقيقي والاستذكاري بالأسطوري. ويعود هذا الغموض والأسطرة إلىٰ قرون طويلة في الماضي. فمثلًا في القرن الخامس عشر اعتبر دييغو غوميز أن البافور من سكان آدرار هم أقوام لهم وجوه الكلاب وأذيالها(٢). وبينما ذهب مؤرِّخون إلىٰ اعتبارهم سودًا(٣)، فإن آخرين جزموا بأنهم كانوا بيضًا(٤)، وهو ما جزم به أيضًا إسماعيل ولد الشيخ سيديا في مطلع القرن العشرين(٥)، ولكنهم لم يكونوا بيضًا أو سودًا بالمعنىٰ الإفريقي السائد بحسب جورج جيرستر الذي يُكرِّرُ تخمينات شارل فوكو، بأنهم ربما كانوا بقايا الأثيوبيين الذين تحدّث عنهم هيرودوتس(٦). وبحسب بعض الروايات البيضانية فإن هؤلاء البافور تعايشوا لاحقًا مع قبيلة ماسنة، الذين كانوا سودًا منحدرين من السونينكي والبولار ما أنتَجَ مجتمعًا متبيضِنًا في ثقافته، وإن لم يكن كذلك في أصولِه(٧). ولا تخلو الروايات الصحراوية من إحالات إلىٰ الشعوب القديمة الغامضة بأنهم أسلاف المجتمعات الصيدية والحِرفية في ساحل

---

(١) مثلًا اعتمد معظم دارسي القرن التاسع عشر والقرن العشرين علىٰ المصادِر المحكية لسبر تواريخ الشعوب المهمّشة في المنطقة. انظر مثلًا أعمال شارل فوكو وغابرييل كامبس في منطقة جنوب المغرب. وانظر مثلًا جمع الدكتور ليكا للآثار المحلية البيضانية في موريتانيا، حيث يجمعُ معلوماتٍ عن البافور اعتمدَ فيها علىٰ التقاليد القبلية عند أولاد أبييري وأولاد دليم وأولاد ديمان وإيداغزيمبو. وقد أحلنا إلىٰ هذه الأبحاث عبر هذا العمل.

(2) Norris. *Saharan Myth and Saga*. Oxford: Clarendon Press,1972, p. 31

(3) Paul Marty. *L'Emirat des Trarzas*. Collection de la revue du monde musulman. Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p. 2.

(٤) أحاله ماك دوغال إلىٰ توبيه Toupet، الدارس الفرنسي في القرن التاسع عشر.

McDougalll, *The View*,34

(5) Lucas, 155

(6) Georg Gerster, *Sahara: Desert of destiny*, Trans. Steward Thomson. New York: Coward McCann, 1960, p. 36.

(7) Lucas, 154.

الصحراء كالإيمراغن وإينادن[1]. ولعل هذا التضارب نبع من حقيقة قدمتها الحفريات، وهي أن الخليط في الواحات والمدن الصحراوية كانوا بيضًا وسودًا، وهو ما أثبتته أعمال مودا، المُعتمِدة علىٰ قراءات ابتدائية للآثار التاريخية وعلىٰ الروايات الشفهية الآدرارية[2]. وربما كان الأمر متعلقًا بثقافتَيْن زراعيتَيْن تعايشتا معًا.

❀ ❀ ❀

في جوهرها كانت المجتمعات المهمّشَة المجهولة، ذات الأصول والألوان المُختلِفة، في الصحراء في فترة ما قبل المرابطين وما بعدها بِقَرنَيْن مجتمعات زراعية ومستقرّة، وخصوصًا في الواحات في وسط البلاد. ولا يبدو أنه قامت من بين هؤلاء قوة مسلحة توسعية لافتة لنظر المؤرخين والأخباريين، ربما بسبب ثقافة الاكتفاء الذاتي بالواحات الصغيرة وانغلاقها علىٰ ذاتها في ديمومات رتيبة. ولكن الحياة الزراعية في الواحات كانت تضمّ شعوبًا متنوعة ومن الأصول كافة. ونعرفُ من إشارات المؤرِّخين العرب أن الصحراء كانت عامرة في قرون الإسلام الأولىٰ، بل إن بعضهم سيعتبر - كما سنرىٰ - أن الصحراء ضاقت عليهم. وإذا كان من قيمة للمشاهدات اللاحقة في هذه القضية، فقد كان المزارعون البيض يسمون بافور أو أبوفور[3]، وذلك بحسب مشاهدات البرتغاليين الذين زاروا البلاد ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر. أما المزارعون السود فكانوا قريبين من الماندي أو جزءًا منهم[4]. وفي تيشيت الوسيطة أو ما بعد الوسيطة سيظهرون في هيئة قبائل حديثة، كماسنة التي عاشت في ظل الثقافة التي تبربرت وتعرّبت.

حسب الآثار الشفاهية، التي يُقدَحُ فيها بأنها لا تمتلك أدوات الحسم في قضية ضاربة في القِدم، فإن البافور قدِموا إلىٰ آدرار قبل البربر؛ إلاّ أن هذا هو أيضًا

(1) Gerster, 36.

(2) Modat, "les populations primitives de l'Adrar mauritanien," 378-81.

(3) McDougalll, *The View*,5.

(4) I. Hrbek and J. Devisse. The Almoravids. Unesco International Scientific Committee for the Drafting of a General History of Africa. *General History of Africa: (vol III) Africa from the Seventh to the Eleventh Century, 336- 367(312).*

مذهب الدراسات الحفرية التي قام بها رايمون موني(١). وقد عملوا في زراعة الواحات واستصلاحها وستعرف الأجيال اللاحقة آثارهم بأنها «**نخل البافور**» في آدرار الحالية(٢). وربما طوّر هؤلاء زراعة الصحراء أكثر من أي شعب آخر في العصور الأولىٰ؛ ذلك أن الآثار المحليّة تُميِّزُ واحاتهم عن الواحات المتأخِّرة، فواحاتُهم اشتهرت بقدم النخل فيها وذبوله بفعل مئات السنين من الحياة(٣). ولعلّ مما يُخبِرُ عن آثارِهم أن المنطقة الآدرارية كانت ما يزال يُشار إليها في القرن السادس عشر بـ «**جبل البافور**»، عندما كانت تتطوّر بها الكَصور والوديان والواحات التمورية المعتمدة علىٰ الزراعة المطرية، والغنية بالقمح والشعير والذرة(٤). ويذهب المؤرخ الفرنسي الرائد بول مارتي إلىٰ تسمية نفوذ البافور بـ «إمبراطورية»، وهو حتمًا يقصد بها امتدادًا ترابيًا شاسعًا، وإن كان جزم بأنها كانت فوضوية أو لا سلطوية، وهو ما أضعفها أمام توسّع البربر(٥).

تنظر بعض التقاليد إلىٰ البافور باعتبارهم ثقافة متطورة قادمة من الشمال. ورغم أن صاحب **الاستبصار** يجزم أن من سكن المجال كانوا بيضًا من أصول زناتية -وهو قريب من تصورات العقيد مودا ثم لاحقًا توماس وايتكومب الذي خمّن أن البافور ربما كانوا عنصرًا بربريًا مختلفًا عن بقية بربر الصحراء(٦)، كما أنه كان خلاصة كثير من الدراسات الفرنسية في حقبة الاستعمار التي اعتبرت البافور بيضًا أصحاب حضارة قادمين من واد نون(٧)- إلا أن بعض هذه التعميمات لا تخلو من ميل النظرة الاستعمارية التي اعتقدت بأن الحضارة قادمة من الشمال حصرًا، من دون تشعبات وتكوين محلي.

وبالطريقة نفسها فثمة إحالات إلىٰ اختلافِهم الدِّيني عن أهل الصحراء،

---

(١) نفسه.

(2) Modat, "les populations primitives de l'Adrar mauritanien," 378-81.

(3) Lucas, 154, 156.

(٤) فرناندس، ص٧٩ -٨١.

(5) Paul Marty. L'Emirat des Trarzas. p. , 2.

(6) Thomas Whitcomb, " New Evidence on the Origins of the Kunta , *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, University of London, Vol. 38,No. 1(1975), 103-123

(7) Lucas, 170-174.

وخصوصًا أهل الصحراء اللاحقين. وقد اقتسمت التقاليد الشفاهية مع التصور الاستعماري الإحالةَ إلىٰ هجرات البافور مضيفة إليها بعدًا دينيًا؛ إذ اعتبر أحد سدنة الروايات البيضانية في مطلع القرن العشرين أنهم كانوا يهودًا قادمين من واد نون إلىٰ آدرار مع أقوام من البربر وأنّهم بنوا فيه أبنية مستقرة وجميلة[١]، وأحالت تقاليد أخرىٰ إلىٰ هذا البعد الديني عندما تحدّثت أن البافور هم بقايا قوم لعنهم نبي الإسلام[٢]. إلا أنه لا يمكن إنكار أن هذه الجماعات التي قدمت إلىٰ الصحراء أقامت بها حضارة ذات جذور محلية، فقد كانوا متشبِّعين بالتقاليد الزراعية التي أعطوها نسخة محلية -بآدرار وتكَانت- واحاتية غالبًا. ويبدو أنهم خبِروا الزراعة المطرية، وحوّلوا أو استغلّوا المنطقة إلىٰ حدائق مزروعة وإلىٰ واحات وحقول، وأتوا إليها بتجربة ونمط جديد من الزراعة غير النمط النيوليثي المحلي الذي كان سائدًا.

ولا تنعدِم الإحالات إلىٰ البافور بأنهم مسيحيون. ففي بعض التخيلات اللاحقة تعايش هؤلاء المزارعون لاحقًا مع هجرات مما قيل بأنه بعض المسيحيين الذين استطاعوا إقصاء البربر والتحالف مع البافور. وحسب هذه الرواية، فإن العنصر المسيحي هاجر من آدرار في القرن التاسع والعاشر. وأحيانًا تغيب الإشارات إلىٰ المسيحيين ويظهر مكانهم البربر المسلمون الذين أسلم معهم البافور في جملة من أسلم في موجة الإسلام التي تدفقت بعد قدوم عقبة بن نافع[٣]. ولا يجب أن ننسىٰ ما قاله لنا البكري في القرن الحادي عشر من أن مجتمعات صنهاجية مستقرة خصوصًا من قبيلتي بني وارث وبني ينتصر، كانوا مقيمين قرب المجتمعات المزارعة السوداء ومتوغِّلين في داخل آدرار[٤]. ومن الأرجح أنهم تفاعلوا مع التجارب المختلفة في المجال. سنعود فيما يلي إلىٰ الأصول الدينية الظنِّية للمجتمعات التابِعة في الفترة القروسطية.

❀ ❀ ❀

---

(١) نفسه، ص ١٥٥-١٥٦.

(2) Gerster, 36.

(3) McDougall, *The View*, 5.

(٤) البكري، ص ١٦٤.

نعرِف الآن أن تعدّد الهويات الوسيطة في الصحراء لم يتوقّف فقط علىٰ البافور وإرهاصات الماندي والبربر؛ وإنما علىٰ فئات أخرىٰ غير مذكورة باسمِها اللاحق في المصادر ولكنها تُتخمّن فيها بجلاء. ولعل أوضحها هي إشارة هيرودتس إلىٰ الأثيوبيين الذين وصفهم بأنهم محروقو الوجوه، والذين ربما يكونون قد هربوا إلىٰ الواحات بعد أن طردهم الغارامانت. وإذا كان الأمر كذلك، فإنهم هم أصلُ الحراطين، بحسب تخمينات بوفيل[1]. وإذا كان عبد الله العروي يوصي بعدم أخذ بوفيل علىٰ محمل الجد، فإن جرستر -وهو في الغالب رحالة وقارئ مستعجِل للآثار- يُحيل إلىٰ غياب الصحراء من التقاليد التي تعود بالحراطين إلىٰ أصول بعيدة، محيلًا إلىٰ قول طارقي عنصري بأن «الحرطاني كالبغل، بلا أجداد»[2]. غير أن غياب الحراطين من التقاليد الصحراوية ليس دليلًا كافيًا لغيابهم من تاريخها؛ ومن المهم -والحال هذه- البحث عن أصولِهم الصحراوية. والواقع أن أعمال الباحثين أمثال جاك مينييه وشارل دو فوكو وغابرييل كامبس تتفِقُ علىٰ أن للحراطين أصولًا قديمةً في منطقة الصحراء شمال موريتانيا وجنوب المغرب. فيعتقد دنيس جاك مينييه أنهم استوطنوا وادي درعة منذ غابر العصور[3]. ويؤكّد كامبس -تابِعًا أحيانًا أبحاث لاوست ومرسييه في ثلاثينيات القرن العشرين وخمسينياته- أن المغرب الجنوبي شهد هجرة باكرة من جنس إفريقي أسود يختلِفُ في سحنتِه عن بقية سكان السافانا. ومن الواضح بالنسبة إليه أن كلمة «**أحرضن**» بالصنهاجية، و«**أشردن**» بالتماشق (اللغة الطارقية)، التي هي أصل كلمة الحراطين هي كلمة أمازيغية استُخدِمت في موريتانيا والمغرب قبل أن يدخل العرب إلىٰ الصحراء. وبهذا المعنىٰ يغدو الحراطين شعبًا أصيلًا في الصحراء الوسيطة، وربما ما قبلها[4].

---

(1) Bovill, 45-46.

(2) Gerster, 36.

(3) Denise jacques-Meunié, *Le Maroc Saharien des origins à 1670*(Paris: Librairie Klincksick, 1982), Tome I, 180-181.

(4) Gabr?el Capms, "Recheres sur les origins des cultivateurs noirs du sahara," *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, 7, 1970. pp. 35-45; 44.

وإذا أمكن لنا تقصي الحراطين إلىٰ أثيوبيي هيرودوتس القدماء، كما فعل غيرُ واحدٍ من الدارسين، فيمكن تقصيهم في الشعب المزارع الممتد من درعة حتىٰ موريتانيا، كما تُصوِّرُهم خريطة كامبس. وقد بقوا دومًا مزارعين ولم يكونوا عبيدًا ولن يرتبطوا بالاستعباد إلا في مرحلة لاحقة. وليس الحراطين بالضرورة أبناء عبيد ومستجلبين إلىٰ مجال البيضان، كما تعتقِدُ ذلك التقاليد الشعبية الموريتانية المعاصرة، ولم يخفَ علىٰ دارسي القرن العشرين أن اختلاف زنجيتهم عن زنجية بقية السود يوحي باختلافهم عرقيًا وأصليًا؛ بل إن الإشارات لا تعدم الحديث عن تداخلات لهم مع السكان الآخرين من «البيض» وغيرهم. وعلىٰ العموم، فقد كان هذا العنصر مثالًا آخر علىٰ تعدّد الحياة العرقية والثقافية في الواحات. فإذا كان بريغس يذهب إلىٰ أن الحراطين أصحاب دماء مختلفة عن بقية الزنوج وإلىٰ أنهم منحدرون من قبائل البيغمي القادمين في القرون الأولىٰ من غربي الكونغو[1] (وكان هؤلاء البيغمي مزارعين غالبًا)، فإن تخمينات تاريخية أخرىٰ تذهب إلىٰ أن الحراطين المزارعين هم بقايا الجيتوليين الميلانيين كما جزم بذلك الرحالة الباحث الفرنسي شارل دو فوكو في أواخر القرن التاسع عشر، الذي قال إنهم هم من تحدّث عنهم القدماء بأنهم قبيلة من الأثيوبيين عرفت بالزنوج البيض أو بالـ Leucaethiopes[2]. لقد وردت هذه الإشارة الأخيرة لأول مرة في توصيفات بطليموس وبليني لبعض السكان في غرب إفريقيا منذ ما قبل الميلاد. ومن الواضح من التوصيف أنهم كانوا أصحاب بشرة فاتحة، ولكنهم بقوا زنوجًا. وبينما ذهبت معظم التوصيفات إلىٰ أنهم كانوا الفلان البولار أو كانوا شعبًا خلاسيًا بين البيض والسود في منطقة حوض السنغال[3]، إلا أن اقتراح الحراطين يبقىٰ معقولًا جدًا، خصوصًا أن الفُلاّن اللاحقين لن يدخلوا تاريخ المنطقة إلاّ بعد الفترة الوسيطة حيث سيمتزِجون بالتكرور، الأقدم والأبعد أثرًا في السودان. وحسب تخمينات دو فوكو، فإن هؤلاء الحراطين لم يكونوا غير الجناح الأسود

---

(1) Gerster, 36.

(2) Ismael Hamet, *Chroniques de la Mauritanie Sénégalaise* (Paris: Editions Leroux, 1911), 87.

(3) Edmond Morel. *Affairs of West Africa*. (London: Wiliam Heinmann, 1902), 141-143; Pliny the Elder. Pliny's Natural History. Trans. Philip Holland. (George Barclay, 1847-1848), 57.

من البربر الذين انقسموا في جنوب المغرب والجزائر إلىٰ الإمازيرن البيض والإيمازيرن السود. الأخيرون هم الليبيون الذين ذهبوا إلىٰ الصحراء واختلطوا مع أهلها، وقد أشار إليهم الباحث ديفيريير Duveyrier بأنهم الغارامانت أو الأثيوبيون[١].

لقد تحدث بليني أيضًا عن شعب البرورسيين الذين كانوا محاذين لأسلاف الحراطين أو الفلان في منطقة النهر، وبالتالي فإنهم كانوا سكان الصحراء كلية. ولكن الغموض يكتنف مصير هؤلاء[٢]. ومن الواضح أن تشعبًا كبيرًا حصل في سكان المجال. وتعضِّد الروايات الشفاهية، المعتمدة علىٰ بقايا السرديات والمخيال الاجتماعي، دومًا هذا التشعُّب في أصول شعب الواحات المجهول، وتركز بعض الروايات بالأخصِّ علىٰ اختلاف المجتمعات الزراعية في الشعب الذي نزل أزوكَي وتيشيت. ويذهب بعضها إلىٰ اعتبار البافور أتوا في أعقاب عنصر أبيض قادم من سوريا، وهم من أزاح الساكنة السوداء إلىٰ الجنوب[٣]. وسيتعزّز هذا الإخصاب العرقي والثقافي مع قدوم الصنهاجيين إلىٰ المجال مدفوعين من الشمال[٤]. وتركِّز بعض الروايات علىٰ البعد اللمتوني، مُشارًا إليه هذه المرة تحت يافطة إيديشلي، وهي مفارقة لا شك، في هوية القادمين الذين طردوا البافور أو احتكّوا معهم[٥]. أما ولد أحمد يورة فيذكر باللاتاريخية نفسها لمتونة ومسوفة ومن سمّاهم «**لكزوب**»[٦]. وأما ولد الشيخ سيديا فيقدم أسماء معظم القبائل الصنهاجية التي هبطت إلىٰ الشمال الموريتاني (جزولة، حسكورة، مصمودة، عرابة، عدجكة، كتامة، صنهاجة، عريقة، أزداجة)[٧].

ولا يتوقّف الغموض فقط علىٰ هوية العنصر الأبيض، بل أيضًا والعنصر

---

(1) Ismael Hamet, *Chroniques*, 87.

(2) Pliny The Elder, 57.

(٣) نفسه، ص ١٥٧.

(4) I. Hrbek and J. Devisse, "The Almoravids," 312.

(5) Lucas, 155

(٦) نفسه، ص ١٥٦.

(٧) نفسه.

الأسود الذي يقول البعض إنه كان سنونكيًا، أما البعض الآخر فيجزم أنه عنصر أسود مستقلٌ، وهو الذي تفرّع منه الحراطين لاحقًا. وكانت بعض الروايات قد نظرت إلىٰ كثير من الحراطين باعتبارهم بقايا البافور الذين تجمعوا في قرية بامبوري في الكَنار بعد الهزيمة في معركة **انتيتام** في عام ١٦٣٠ وانقراض البافور البيض من الأسياد[١]. أما بعض التقاليد المنسوبة إلىٰ قبيلة إيدابلحسن فقد جزمت بأن بقايا البافور قد دخلوا في قبيلة الطلابين وأن أولاد بنيوك ينتسبون لهم[٢]. كل هذه روايات متضاربة ولا تسلم من أدلجة وأسطرة، ولكن من الواضح أن خليطًا غامضًا قد حدث في الواحات قبل الإسلام وبعده، وأنه يمكن استخدام هذا الاختلاط للحديث عن أصول بعض المجموعات الصحراوية التي لم تبُح بها المصادر الكِتابية ذات الأفق والمنظار الضيّق.

❁ ❁ ❁

لم يكن الامتزاج الذي حصل في الواحات في القرون الطويلة مجرد امتزاج عرقي، بل كان ثقافيًا. ولم تكن ثقافيته تتوقّف فقط علىٰ تقديم مناهج جديدة في الزراعة وحفر الآبار، بل طالت المعتقدات والأديان. ففي الواحات المغربية والصحراوية حملت المجتمعات الثانوية معها ثقافاتها الدينية المختلفة: اليهودية والوثنية والمسيحية، وامتزجت كلها وتثاقفت مع الأديان ما قبل السماوية في الصحراء. بل لقد حدث هذا الامتزاج في الشمال بصورة أولية. ولعلّه لم يخفَ حتّىٰ علىٰ المستشرقين الأوائل الذين يذكر من بينهم بيرونجيه فيرو Bérenger-Féraud، أن القبائل اليهودية والمسيحية في جنوب الأوراس فرّت من الفاتحين العرب إلىٰ شعاب الجبال، حيث اختلطت مع أهلها. وهو يذكر من هؤلاء قبائل أولاد داوود الجزائريين المعروفين بالداودة الذين سيختلط بعضم مع قبائل بني سليم وبني هلال لاحقًا[٣]. ويذكر ليون الإفريقي أن الأفارقة تهوّدوا ثم تنصّروا قبل

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(3) H. Z. Hirschberg, The Problem of the Judaized Berbers, *Journal of African History* 4, no. 3 (1963): 313-339.

الإسلام. ويُشير الزهري إلىٰ مجتمعات في هامش الصحراء من السود المتنصرين، الذين كانوا يتعرّضون لغارات مستمِرّة من سكان تادمَكّة ونسلىٰ[1]، تمامًا كما سيشير الإدريسي إلىٰ مجتمع يهودي في قمنورية في قلب الصحراء كان يتعرّض لغزوات شبيهة من الزغاوة وغيرهم.

وربما ارتبط الاختلاط الثقافي الديني باختلاط عرقي، وهذا ما توصّل إليه دارسو مجتمعات غرب الصحراء وجنوب ليبيا؛ فيُلمِّحُ بريغس إلىٰ أن التيبو كانوا مزيجًا من السود والبربر. وقضية الخلاسية بين شعوب الصحراء والساحل هي قصة قديمة، وربما كانت تفسِّرُ قصة «الزنوج البيض» الذي عرفهم بليني[2]. وربما انحدر الزغاوة -الذين كانوا يقومون بهجمات في عمق الصحراء الموريتانية الحالية، حسب ما نقله الإدريسي في القرن الثاني عشر- من خليط وتزاوج في الصحراء[3]. ويتحدّث ابن أبي زرع عن شيوع اليهودية والمسيحية والوثنية (المجوسية) في عهد الإسلام في بطني بين يرغش وزواغة من قبيلة زناتة في القرن الثامن الميلادي في منطقة فاس ونواحيها، وذلك أيام تشييد مدينة فاس من قبل إدريس الأول (٧٤٣م-٧٩٣م)[4]. وحسب وايتكومب، فهذه هي الفترة التي ينسب فيها المؤرخون هبوط قبيلة غير صنهاجية، وإن من البربر، في المجال الموريتاني[5]، وربما عنىٰ بذلك الزناتيين أنفسهم، الذي رأيناهم في الصحراء الوسيطة في أوداغست. ومن المحتمل جدًا أن الامتزاج الديني في الواحات الصحراوية كان ترجمة للامتزاج العرقي الذي اختلطت فيه العناصر السوداء بالبيضاء واليهود بالمسيحيين والمسلمين.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي علىٰ الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ص ١٢٥-١٢٦.

(2) Frank Snowden. Blacks in Antiquity: Ethiopians in Greco-Roman Experience. Cambridge: Harvard University Press, 1970, 112.

(٣) الإدريسي، ص ١٢٦.

(٤) ابن أبي زرع، ص ١٥.

(5) Whitcomb. New Evidence1, 120

وربما ظهر هذا الامتزاج في التشكل النهائي لعنصر البافور أو «**أن بافور**»، التي ربما كانت تسمية جامعة ومكانية أكثر مما كانت عرقية وربما تكون استمدّت نفسها من «**آدرار أن بافور**» أو جبل البافور، الذي ذكره فرناندس والذي سيتمُّ اختصاره لاحقًا إلىٰ آدرار. أما في أيام البكري فقد كان يشار إليه بـ«**أدرار أن وزال**»[١]، التي كانت تعني جبل الحديد[٢]. وحتىٰ في قرون الإسلام الأولىٰ هبطت مجموعات عربية مسلمة إلىٰ الصحراء فيما بعد فتوحات عقبة وامتصتها الواحات وشعوبها، ويرجح أي أم بوفيل أنها تزاوجت مع اليهود هنالك[٣]. وقد كان هؤلاء اليهود مقيمين قبل ذلك بقرون في واحات الصحراء التي هربوا إليها بعد ثورة برقة التي فشلت في عام ١١٥ وتطاير المنهزمون إلىٰ الجنوب، حيث وصلوا إلىٰ الواحات الآدرارية في بدايات القرن الثاني[٤]. وفي القرون اللاحقة فإن تعايش الثقافتين السوداء والبيضاء، الليبية والأثيوبية، الأمازيغية والزنجية كان راسخًا[٥]. يتحدّث بوفيل عن مسار هبوط هؤلاء في الصحراء: «في الجنوب استوطنوا فزان ووصلوا إلىٰ واحات الكور. ولكنهم رجعوا بعد أن كادوا يكتشفون الأراضي الخصبة في السودان. بعضهم نزل في واحات الصحراء وربما تزاوجوا مع اليهود»[٦]. ويُعيّن بوفيل في هذا السياق قبيلة موريتانية بعينِها، إلاّ أنه لا يُقدِّمُ مستندًا مُعتبرًا[٧].

❀ ❀ ❀

بعد دخول الإسلام لم يكن سكان الواحات الصحراوية، وأولهم من وُصِفوا بالبافور، مسلمين مباشرة، وقد ظلّت التقاليد المحكية تشير إليهم بأنهم كانوا كفارًا أو كانوا يهودًا. وفي القرون الوسطىٰ كانت الأحاديث حول يهوديتهم ما

---

(١) البكري، ص ١٦٣-١٦٤.

(2) Whitcomb. New Evidence,2, 103-123.

(3) Bovil, 58.

(٤) نفسه، ص ٥٠.

(٥) نفسه، ص ٤٥-٤٦.

(٦) نفسه، ص ٥٨.

(٧) نفسه.

زالت قوية. لقد تهوّد كثير من البربر في الألفية الأولىٰ قبل الإسلام، وبقيت اليهودية حية في المغرب العربي بفعل الجيوب الباقية من هؤلاء بعد الدخول الصحراوي في الإسلام. ولفترة استقر اليهود في جنوب المغرب في مْزَاب وفي درعة وتاجروا في الصحراء التي نزلت إليها مجموعات منهم متجهة إلىٰ إفريقيا واستقرّوا بها(١). تنوّعت أسباب هبوطهم من التجارة إلىٰ الهروب والالتجاء. وتنسب لهم كثير من الأساطير تأسيس غانة التي هاجروا إليها بعد نزولهم إلىٰ الصحراء(٢).

ولم يكن المنسوبون لليهود دومًا سكان واحات، بل كانت أرضهم في قمنورية في الساحل الموريتاني -ربّما في القرون الإسلامية الأولىٰ حتّىٰ القرن الثالث عشر- بعيدة عن منطقة الواحات والنخيل. وربما كانت تجمعًا من **الكصور** أو المدن الصغيرة التي كانت مستقرًا للقوافل. وقد جمعت هذه المدن شعوبًا شتّىٰ لم تكن تتبع لسلطة سياسية واحدة، وإن كان فيها قضاة يفصلون في المشاكل والخلافات. وهو ما يجعلنا نعتقد أن المنطقة كانت منطقة استراحة قوافلية أو ملتقىٰ للمصالح المتقاطعة عبر الصحراء أو ربما كانت سوقًا كبيرًا تطوّر إلىٰ مدينة أو قرية كبيرة. وبطبيعة الحال، لم تسلم هذه المدن من الغزوات؛ نظرًا لغياب سلطة مركزية فيها مما أدىٰ إلىٰ نهايتها حسب ما أورده الإدريسي:

وأرض قمنورية منها في جهة الشمال متصِلة من غربيِّها بالبحر المظلم، وتتصِّلُ من جهة شرقيِّها بصحراء نيسر، وعلىٰ هذه الصحراء طريق تجار أهل أغمت وسجلماسة ودرعة والنول الأقصىٰ إلىٰ بلاد غانة وما اتَّصلَ بها من أرض ونقارة التبر. وأما أرض قمنورية المذكورة فكانت بها مدن للسودان مشهورة وقواعد مذكورة، لكن أهل زغاوة وأهل لمتونة الصحراء الساكنين من جهتَيْ هذه الأرض طلبوا هذه الأرض، أعني أرض قمنورية، حتىٰ أفنَوْا أكثر أهلها وقطعوا دابرهم وبدّدوا شملهم علىٰ البلاد. وأهل بلاد

---

(1) Joseph W. Williams, Hebrewism of West Africa: From the Nile to Niger with the Jews. London, 1930, p. 228, 215-216.

(2) Bovill, 50.

قمنورية فيما يذكره التجار يدّعون أنهم يهود، وفي معتقدِهم تشويش، وليسوا بشيء ولا علىٰ شيء، ولا ملك فيهم ولا ملك عليهم، بل هم ممحونون من جميع الطوائف المجاوة لهم المحدقة بهم.

وكانت في القديم من الزمان السالف لأهل قمنورية مدينتان عامرتان، اسم إحداهما قمنوريٰة واسم الأخرىٰ نغيرا، وكانت هاتان المدينتان تحتويان علىٰ أمم من القمنورية وبشر كثير. وكان لهم رؤوس وشيوخ يدبِّرون أمرهم ويحكمون في مظالمهم وما وقع بينهم، فأفنتهم الأيام وتوالت عليهم الفتن والغارات من جميع الجهات؛ فقلّوا في تلك الأرض وفروا عنها واعتصموا في الجبال وتفرّقوا في الصحاري ودخلوا في ذمة من جاوَرَهم وتستروا في أكنافهم، فلم يبق من أهل قمنورية إلا قومٌ قلائل متفرِّقون في تلك الصحارىٰ وبمقربة من الساحل عيشهم من الألبان والحوت وهم في نكد من كدِّ العيش وضيق الحال، وهم ينتقلون في تلك الأرض مع مهادنة من جاورهم ويقطعون أيامهم مسالمة إلىٰ حين[١].

ويشير صاحب **الاستبصار** -بطريقة مختلفة- إلىٰ بعض المدائن في الصحراء التي هُجِرتْ، ولكنه يحيل إلىٰ أن السبب في هجرانها كان الجن[٢]! والإدريسي واضح حول سودانية هذه التجمعات. وفي الأساطير السونينكية أن الوجود السونينيكىٰ طال جميع منطقة الشمال الموريتاني إلىٰ أن قدم الوافدون البيض الغازون وسيطروا علىٰ نصف جبل أزوكَي، حيث كانت حاضرة السونينكي. وحسب الأسطورة، فإن ملك السونينكي كان راميًا ماهرًا غير أنه أصيب بالعمىٰ في آخر حياته؛ لذا أمر بتوجيهه إلىٰ جهة قائد الجيش الغازي وأطلق سهمه تجاهه فأرداه قتيلًا، وانهزم البيض إلىٰ منطقة البحر. ثم جاءت غزوة أخرىٰ من البيض ومنها تفرّعت قبائل البربر وصنهاجة[٣]. ورغم البعد الميثولوجي والفلكلوري لهذه القصة، إلا أن الآثار الرومانية واليونانية القديمة واضحة بخصوص أن الأثيوبيين

---

(١) الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تصحيح هنري بيرس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية بالجزائر، الجزائر، ١٩٥٧، ص ١٦-١٧.

(٢) الاستبصار، ص ٦٧.

(3) Lucas, 161-162.

كانوا يجوبون الصحراء، ما يرىٰ كامبس أنه أصل الحراطين.

وفي القرن الثاني عشر بدا أنه تمّ القضاء علىٰ المنحدرين من الأعراق غير المصنفة، إلا من فئة قليلة هربت بنفسها إلىٰ الساحل وبدأت تنتهج حياة الصيد البحري، حيث سيلتقيها الرحالة البرتغال في القرن السادس عشر وسيعرفونها باسم **الشِّرمية** أو **الآزناكة الشِّرمية** Aznegue Schirmeyros[1] (السمّاكين الأزناكَة)، المشتقة من كلمة «**شيمي**» التي تعني «السمك» باللغة الصنهاجية. وربما كانت هذه المجتمعات هي أصول مجتمعات الصيد ذات الأصول البافورية كالإمراكَن[2].

ورغم أن مؤرِّخًا لليهودية في المغرب هو أيتش زي هيرشبرغ (١٩٠٣-١٩٧٤) يوصي بعدم الأخذ برواية الإدريسي بخصوص يهود قمنورية بحجة ألا أحد غيره ذكرها، إلا أنه لا ينفي حضور مجموعات من اليهود في المنطقة المذكورة[3]. ومن الواضح أن حضور الموصوفين باليهودية هو التاريخ السري للصحراء؛ إذ حرصت التابوهات الاجتماعية علىٰ دفنه رغم حضوره في بعض الآثار الشفاهية، وأيضًا نظرًا لطبيعة صناعة الأنساب التي طبعت الحياة الصحراوية. وربما لا يهمّ الموضوع إلا من منظور تاريخي؛ ذلك أن من الواضح أن الأعراق تشتت في تزاوج الصحراء واختلطت. وحسب دراسة علمية قام بها رافاييل باتاي وجنيفر باتا استخدما فيها المسح الوجهي ومؤشرات مورفولوجية أخرىٰ، فإن حضور اليهود في الصحراء ومزاب قد تأثّر بتغيراتٍ كبيرة بسبب الاختلاط مع بقية الشعوب؛ ولكن أهمّ ما تخلصُ إليه الدراسة -برأينا- هو عدم وجود اليهود كعرق مستقل في الصحراء بشكل متميِّزٍ عن بقية الأعراق[4]. وهو ما يقترب من حكاية الإدريسي حول تعرُّض «اليهود» لكثير من الهجمات والتعبيد، أكان ذلك في شمال الصحراء أو في جنوبها في بلدتي مَلَلْ ودو في مالي الحالية. وهو ما يوافق أيضًا

---

(1) Valentin Fernandes. *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal*. P. DeCenival et Th. Monod (Eds) Paris V, Librairie Larousse, 1938, 55, 59, 73.

(2) Pazzanita, 152.

(٣) ابن أبي زرع، ص ٧.

(4) Raphael Patai and Jennifer Pata. *The Myth of the Jewish Race* (New York: Chareles Scribner's Sons, 1975).

ما ذهبت إليه التقاليد الشفهية بخصوص الامتزاج في الواحات.

ويتّفِقُ ابن أبي زرع مع البكري في وصف صراعات البربر واليهود في تاتاكلاتين ونغيرا فيما حدّده هيرشبرغ بأنه وسط الصحراء شمال أوداغست وشرقها[١]. وحتىٰ عندما وصل اليهود إلىٰ الجنوب السوداني في قريتي مَلَلْ ودو، فإنهم لم يسلموا من الهجمات المستمرة من قبل الغانيين والتكرور. وكان هؤلاء «اليهود» متميِّزين لغويًا وثقافيًا عن الأقوام المحيطين بهم، وكان أعداؤهم يغيرون عليهم ويَسْبُون نساءهم ويعبِّدون رجالهم ويبيعونهم للتجار «إلىٰ سائر الأقطار»[٢]. ويعرف هؤلاء بيهود لملم، وإن كان هيرشبرغ يعتبر أن وجودهم كان ضربًا من خيال الرحالة العرب مثلهم مثل يهودية بعض القبائل الموريتانية[٣].

وإذا كان من وُصِفوا بـ «اليهود» قد اختفوا في الأعراق حولهم، خصوصًا أنها كانت تهاجمهم وتخضعهم، فإن اليهودية بدورها لم تكن إلا أعرافًا باقية أو مُتخيّلة من الماضي، حتىٰ في أيام وجود جماعات موصوفة باليهودية في القرون الوسطىٰ. وتجسّدت هذه الهوية في بقاء العادات الثقافية لدىٰ سلالات يهودية بعد انتهاء اعتناقها لليهودية، وهو ما أعطىٰ حياة للعلامات الثقافية اليهودية في عادات بعض مجموعات الصحراء والسودان، فبقيت الأوشمة وغيرها تميزهم عن جيرانهم، غير أن «الجهل» كان ملمًا بهم؛ وهو الجهل الذي يعتقد المؤرخ هيرشبرغ أنه ساهم في إنهاء التدين اليهودي من الصحراء فانقطعت الصلة مع يهود الشمال وغابت المؤسسات التعليمية والدينية كالمعابد من الصحراء[٤]. ولكن ترسّبات من العادات اليهودية بقيت ملاحظة في التقاليد العامة؛ فقد لاحظ بعض الباحثين في الموضوع استمرار عادات يهودية في المجتمعات المنسوبة لليهود في الولوف، حيث كانوا يطبخون في عاشوراء **(تاباسكي)** ويغنون أغنية غريبة فيها

---

(1) Hirschberg, 322.

(٢) الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تصحيح هنري بيرس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية بالجزائر، الجزائر، ١٩٥٧، ص ٥.

(3) Hirschberg, , 315-317.

(٤) نفسه، ص ٣٢٧.

كلمة «**ألالويا**» اليهودية[1]. ومن الواضح أن ذبول اليهودية في عموم المنطقة كان عملية تاريخية وثقافية كبيرة، ففي فترة القرون الوسطىٰ في الجزائر نلاحظ أن أحد الحاخامات اليهود شكىٰ من اندثار الهوية اليهودية بين يهود الجزائر قائلًا: «إنهم لم يعودوا يهودًا إلا بالاسم»[2].

وكان العامل الآخر في امتصاص من وُصِفوا بيهود الصحراء هو عامل الإلحاق القبلي، وهو نموذج للسيطرة الاجتماعية بقي مهمًا في تاريخ الصحراء كما سنرىٰ. وخلاصته أن المجتمعات المحاربة عمدت إلىٰ إلحاق اليهود بهم كأقنان أو كعبيد أو حرفيين. وربما بدأ الأمر أولًا مع القمنوريين بالصحراء وبسط الحماية عليهم. وفي القرن السادس عشر كانت وضعية اليهود في المجال ما زالت شبيهة بوضعيتهم في قمنورية؛ إذ كانوا يخضعون لسلطان القبائل القوية فكان تجار المنطقة يأخذون أدلاء من اليهود يرافقونهم في أسفارهم ويقومون بحمايتهم وإدخالهم في ذمتهم ويدفعون دياتهم في حالة قتلهم[3]. وفي السودان في الفترة نفسها كان هنالك يهود ملحقون بالماندينغ وجولوفا، حسب مشاهدات فرناندس. ولم تكن هذه آخر إشارة إلىٰ اليهود في المجال، ففي عام ١٨٦٠ لقي الرائد فينسان يهوديًا أبيض اسمه مردوخ في أطار الموريتانية يعرف الفرنسية وسبق له أن زار سان لويس ولوهافر ومرسيليا[4].

❀ ❀ ❀

وعلىٰ العموم، كانت المجتمعات الصحراوية التابِعة كثيرة ومتمايزة وربما تفرّع بعضها من بعضها الآخر. ولكن كثيرًا منها كان في أغلب الأحيان يؤدّي وظيفة مهمة للاقتصاد السياسي واقتصاد الصحراء. فقد كان هنالك المزارعون البافور

---

(1) Labelle Prussin, "Judaic Threads in the West African Tapestry: No More Foreever?," *The Art Bulletin*, 88, No. 2(Jun., 2006), pp. 328-353.

(٢) نفسه، ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٣) نقلها فيرنادس؛ وانظر أيضًا:

Prussin, 330.

(4) J. Ancelle. Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines depuis l'antiquité Jusq'a nos jours. Paris.Maisonneuves Preres et Ch. Leclerc, Editeurs, 1886, p.135.

والمزارعون الغانغارا السود، وكان هنالك الصيادون البريون الذين عرفوا لاحقًا بالنمادي. وكان هنالك صيادو السمك الذين عرفهم البرتغاليون بالشرمية ثم عرفتهم الأجيال اللاحقة بالإمراگن. وربما دخلت هذه المجتمعات في علاقات تبادلية مع بعضها، وربما بقيت متمايزة بينها لفترة، وربما سقطت في نير القبائل المستأسدة والإقطاعية العسكرية. وربما انصهرت في التحولات النسبية والهويات المتغيّرة الكثيرة في الصحراء. يمكن التخمين هنا وهنالك، ولكن الأرجح أن امتزاجًا قد حصل في القرون الصحراوية الطويلة، ليس فقط في القرون الوسيطة وإنما في تلك الحديثة أيضًا. فربما كان تمايز بين الأعراق مشاهدًا في الحياة بآدرار وتگانت في القرون الأولىٰ؛ إذ لم يندمج كل البربر البافور مع بقية البربر في حياتهم البدوية الصنهاجية؛ إلا أنهم سرعان ما اندمجوا في الحياة الرعوية، وربما الزراعية، بعد قدوم البربر الجدد من الصنهاجيين في القرن السابع حسب قراءة آن ماكدوغال[1]، ولكننا نعرف من الروايات التي جمعها مودا أنهم بقوا متمايزين عنهم حتّىٰ بعد قرون طويلة. كما أن الكثير منهم كانوا يعملون في الصيد البري كما تدل علىٰ ذلك **مدينة الكلاب** التي ازدهرت في أزوگي. وفي القرون اللاحقة ستتفرع منهم شرائح ضئيلة من الصيادين البريين والبحريين.

وينطبق الشيء نفسه علىٰ سكان الواحات. فعلىٰ مرِّ القرون سيتم إقصاؤهم أو إخضاعهم بالعنصر الصنهاجي الهابط من الشمال وخصوصًا اللمتونيين، الذين أشارت إليهم التقاليد الشفهية بأنهم أسلاف إيديشلي، الذين قضوا علىٰ البافور بعد فتح أزوكي[2]. وقد تحدّث إسماعيل ولد الشيخ سيديا في القرن العشرين عن بقايا هؤلاء البافور القادمين من الواحات، وقد تحوّلوا إلىٰ حياة أخرىٰ كما كان شأن تگماطين في الترارزة، الذين كانوا مزارعين ولكنها لم تكن زراعة الواحات بل زراعة السهول، وكحراطي البافور الذين بسط أولاد بنيوك سيطرتهم عليهم وعلىٰ أهل بابيرة الجداليين الملحقين بجدالة في لبراكنة وأهل المبروك بالإضافة إلىٰ بعض الملحقين بمشظوف في الحوض[3]. وهو ما يوافق رواية المختار ولد

---

(1) McDougalll, *The View*, 5.

(2) Norris, Saharan Myth, 80; Lucas, 155.

(3) Lucas, 155.

حامد بأن البافور قبيلة توطّنت في آدرار وأخضعها المرابطون، وأنها أصل تيزكة وأهل بو حويفر في أهل سيدي محمود ومجموعة هدة في السنغال[١]. لقد تمّ إلحاق هؤلاء بحياة البيضان الرعوية أو الحربية أو العلمية وانتهت وحدتهم اللغوية والثقافية. ولكن الروايات لا تتّفِق علىٰ أن البافور انهزموا دون مقاومة أو دون عوامل ذاتية، بل تذهب بعض الآثار إلىٰ الحديث عن حرب أهلية كبيرة جدًا بين البافور أدّت إلىٰ هبوط بعضهم إلىٰ أرض الگبلة، حيث شيّدوا بئر «**إن داب فور**» واستمروا مسيطرين لفترة قبل أن يقصيهم المغافرة في القرن السابع عشر بعد وقعة **انتيتام**، التي يبدو أن البافور راهنوا فيها علىٰ الطرف الخاسر من أولاد رزك[٢].

❀ ❀ ❀

وفي الفترة اللاحقة للمرابطين في القرن الثاني عشر أدّىٰ تفرق المجتمعات الغامضة في الأساطير والفلكلور إلىٰ توزُّع طبقة من الحرفيين في القبائل الصنهاجية. وقد بدأت هذه الطبقة في تقديم خدمات مهمة للحياة الصحراوية. وقد ذكر الإدريسي طلب احتماء بعض القبائل الغامضة للقبائل القائمة[٣]. ولكن هذا الانضمام لم يكن دومًا في صورة المكاتبة التي ستصبح قانون الانتساب القبلي في الصحراء، وصيغة تندمج بها مجتمعات في قبائل الصحراء وتكسب فيها هويتها بالتقادم؛ إذ لم يحصل كثير من الموسومين بالبافورية أو السامية علىٰ صفة العضوية الكاملة في القبائل بل تم إلحاقهم بها في إطار وظيفي يمنع التدرج في القبائل وسلالتها النسبية. وهكذا وَجدت طبقات من المُلحقين والحرفيين والمغنين وضعًا طبقيًا، وليس نسبيًا، في كثير من القبائل الصحراوية.

كان ليون الإفريقي مسافرًا عبر الصحراء وقد أشار إلىٰ وجود اليهود فيها كبنائين وحدادين وصناع للذهب، وسافر معه عدد من اليهود في رحلاته عبرالصحراء وهو ما جعله يعرف الكثير من عاداتهم وتقاليدهم. غير أن المؤسسة الحرفية في الصحراء لم تكن بالضرورة مؤسسة قبلية أو عرقية، أو حتىٰ ذات نسب

(1) Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, Tome I, p. 157-158.

(2) Lucas, 156.

(٣) الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تصحيح هنري بيرس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية بالجزائر، الجزائر، ١٩٥٧، ص ١٧.

واحد؛ بل كانت صِناعة مفتوحة للمتمرِّسين والمرتزقين، وربما تعود أصول حرفيي الصحراء إلىٰ ما قبل الميلاد عندما أدخل البافور تقنيات الحديد. وقد استمرّت هذه الصناعات الحرفية حتىٰ عصر المرابطين عندما كانت مزدهرة في المدن الإباضية المعتمدة علىٰ المناجم الفضية والنحاسية ومناجم سبك الذهب، كما كان الحال في أوداغست وثرغية التي ذكرها المسعودي. وقد ذهبت لابيلل بروسان إلىٰ استخدام نوع من التحليل الألسني للجزم بالأصول اليهودية لبعض العناصر الموريتانية من خلال تقصِّي توحد أسمائها الوظيفية في اللهجة الحسانية والعبرية. وبرأيها، فلن يحدث هذا التطابق في اللغة الدارجة إلا بفعل مؤثر خارجي هو التأثير اليهودي. وبرأي الباحثة، فإن الكلمة نفسها تم استخدامها في المجال الحرفي الصحراوي-السوداني لتدل علىٰ الحياكين والصناع والحدادين والنجارين والمزخرفين، وذلك في لغات الهاوسا والطوارق والحسانية[١]. ورغم أن تحليلات بروسان موجودة في بعض فلكلور الصحراء وأن هذا الفولكلور يُدمج الحرفيين والمغنين في أصل سامي[٢]، إلاّ أنها تُسقِطنا مرة أخرىٰ في مغالطة الأصل المشترك والنقي، بينما في الواقع تتعدّد مؤشرات الامتزاج والانتساب. وتعود علاقات هؤلاء الحرفيين بالسودان إلىٰ العهد المرابطي عندما عبرت مجموعات منهم وادي درعة واستقرت بالسودان الإفريقي، وارتبط اسم وادي درعة بالمغرب عند سكان السودان الإفريقي في الجنوب[٣].

ولا يتوقف هذا التنسيب السامي فقط علىٰ بعض سكان الصحراء، بل ويطال بعض سكان السودان كذلك، وخصوصًا حرفييها[٤]. كما أن هؤلاء النسابة يستغلون كلّ هروب «سامي» لتخيّل هجرة تأسيسية. ويبدو أن تنسيبًا كهذا أثير

---

(1) Prussi,. 328-353.

(٢) الشنقيطي، الوسيط، ص٢٤٦، وص ٧٣.

(3) Jaques-Meunié. Le Maroc saharien: des origines à 1670. Librairie Klincksieck vol 2, 1982, p. 570-570

(٤) عن يهود إفريقيا عمومًا، ومن بينهم يهود الصحراء وإفريقيا انظر:

Ed?th Bruder, The Black Jews of Africa: History, religion, Identity (Oxford; Oxford University Press, 2008).

عندما ازداد المجتمع الحرفي بموجات قادمة من توات عندما هاجر بعض اليهود أيضًا بعد الأحداث الدامية في عام ١٤٩٢، وقد عملوا في إطار التبعية لقبيلة كنتة الشرقيين. ويثار الشيء نفسه في مجتمعات الفلان التي ظهر فيها الحرفيون تحت اسم «**الدكّة**»، الذي هو الاسم الطوارقي نفسه للحدادين، وهي نفسها طبقة «**اتيام**» عند التكرور التي تشير إلىٰ واحدة من القبائل من أصل أربع الذين هم أصل الحدادين، وهي نفسها «**جام**» لدىٰ الولوف. ويبدو أن الطبقة الحرفية البافورية الصحراوية عملت علىٰ تطوير الفن الحرفي والصناعة الحديدية في الترارزة وتعليمها لطبقة الحدادين الولوف[1]. وفي لحظات الحرب كانت جماعات متخصِّصَة من هذه الطبقة تشتغل في تشجيع المحاربين علىٰ الحرب من خلال قرع طبول الحرب والأغاني الحماسية التمجيدية[2]. وحسب مشاهدة ليون الإفريقي، فإن جلَّ هذه الطبقة من الحدادين والفنانين في السوس ووادي درعة ووادي نون وسجلماسة كانت ذات أصل واحد[3]. وخلاصة القول، أن غموضًا لفَّ حياة مجموعات صحراوية وفتح الباب لنسبتها إلىٰ السامية، التي ربما أصبحت مفهومًا وتصنيفًا هُلاميًا تمت رومنسته أو شيطنته أو تغميضه في أحاديث الصحراء.

❋ ❋ ❋

ورغم إلحاق المجموعات ذات الهوية الغامضة بالقبائل المسيطرة، فإن هذه الجماعات -المنسوبة دومًا وربما جزافًا إلىٰ اليهود- لم يتم امتصاصها كلية في القبائل السيِّدة، بل حافظ الكثير منها علىٰ امتدادهم في الزيجات البينية والارتباط الوثيق والسكن المرتبط. وهو ما أمكن بفعل وضعيتهم الدونية في المجتمع. وهكذا أمكن لهم المحافظة علىٰ تماسكهم كأصحاب هويات متميزة، وهو تميز وإن لم يكن يعني نقاءً عرقيًا، فقد تمّت المحافظة عليه بالبعد الوظيفي الاجتماعي. وفي بداية القرن الخامس عشر لاحظ زائر للمجتمع أنهم كانوا متميزين عن غيرهم، فكانوا «قومًا جميلين، خاصة نساءهم». وكانوا يتنقّلون في

---

(1) Prussin, 331-341.

(2) Fernandes, 54, 72, 84; Hirschberg, 319.

(٣) الشنقيطي، الوسيط، ص ٢٤٦.

جماعات من الرجال والنساء كما كان «يفعل الغجر في أوروبا». وكانت الصور النمطية في مجتمعات الصحراء والسافانا هي ما يعيق اندماج هذه المجتمعات في المجتمع الأم. ففي الجنوب اعتُبِر الزنوج يهودًا وعنصرًا ملعونًا(١). ورغم أن كثيرين من هؤلاء كانوا قادرين علىٰ تحصيل ثروات مهمة في الصحراء وخصوصًا من تجارة الذهب وصناعة الجواهر، إلا أنهم بقَوْا مضطهدين ومحتقرين كما تدلُّ علىٰ ذلك مشاهدات فرناندس في ولاتة في مطلع القرن السابع عشر وفي غيرها، حيث كتب أنه(٢): «في هذه المدينة يوجد يهود أغنياء، ولكنهم مغلوبون علىٰ أمرهم وهم إما تجار متنقلون أو صائغون أو جواهريون»(٣).

❁ ❁ ❁

لعلّ اليهود لم يكونوا عُنصرًا صحراويًا مُقيمًا، وإنما كانوا تجارةً عابرة تركت آثارها في المجال الموريتاني. وقد عبروا الصحراء علىٰ مرِّ القرون وخصوصًا بعد سدِّ طريق الصحراء الشرقية واسبقاء طريق سجلماسة - أوداغست - غانة(٤). ومن هذه الأواصر القوافلية وُلِدَت علاقات جديدة بين المسافرين ومجتمعات الصحراء، فقد أظهر خلاف عائلي بين أسرة يهودية أمام محكمة يهودية في الجزائر في القرن الرابع عشر حجمَ العلاقات التجارية مع الصحراء، حيث يتضح أن اليهودي التاجر الذي توفي قد أودع أمواله إلىٰ «**مرابط**» في الصحراء، وكما نعرف فإن المرابط كان رجل الدين أو الزاوي أو المحارب، حسب الفترة التاريخية. ولم يكن المرور اليهودي أمرًا عرضيًا، بل كان نشطًا علىٰ مئات السنين بحيث إن الطريق القوافلي المارَّ بالصحراء بين السودان والمغرب سيعرف أحيانًا بـ«**طريق اليهود**»(٥). وحسب ما اعتقده جاك مينيه، فإن هذا الحضور كان يعود إلىٰ قدرة اليهود علىٰ القراءة والكتابة ورأب الصدع التواصلي اللغوي بين

---

(1) Hirschberg, , 319.

(2) Fernandes, 97.

(٣) نفسه، ص ٨٥.

(4) Hirschberg, 322.

(٥) نفسه، ص ٣٢٤.

العرب والبربر الذين لم يكن أيّ منهما يفقه لغة الآخر[1].

وكان للعوامل الثقافية والدينية أيضًا دورها في هذا؛ إذ ساهم التعفّف -السنّي، وبالأخصّ المالكي- عن المتاجرة في الذهب والحرير في إفساح المجال لليهود لاحتكار هذا النشاط التجاري. وكانت المجتمعات المتاجرة اليهودية تمتلك محفِّزات دينية وثقافية تجعلها تنشط في تجارة الذهب الصحراوية؛ إذ كانت الطبقة العامِلة والعالِمة متداخلة دينيًا، ومن هذا التداخل تشكّلت طبقة تركت لها الأديان التوحيدية اللاحقة غالبًا مهمة مباشرة الجواهر والحلي. وفي التراث العربي الإسلامي، فإن هذه الطبقة هي التي تكفلت بالسكاكة (صناعة الذهب) والصفارة (صناعة النحاس) والنجارة والخياطة والصباغة. وهو ما جعلها تتصدّرُ التجارة القوافلية بين الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. وهكذا ظهر عناصرها في تجارة المواد الغالية كالذهب والجواهر والحرير وتجارة التوابل والقماش الأسود، المعروف عند البيضان بـ«**النيلة**»، التي ستصبح ذات أهمية هائلة في الصحراء في القرون اللاحقة[2].

كان لهؤلاء التجار العابرين قدرة تجارية مثيرة للانتباه. وقد ذهب بعض الباحثين البرتغال الحديثين إلىٰ أن التجار اليهود العاملين في تجارة الثياب كانوا يتحكّمون في الواردات من القماش إلىٰ آرغين في القرن السادس عشر[3]. وهو ما سيؤدِّي إلىٰ أن يشدّ البيضان إليهم الرحال، مُتاجِرين معهم بدلًا من المتاجرة مع آرغين. ويبدو أن بعض اليهود البرتغال جرّب حظه في موريتانيا بغرض التجارة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر[4]. بل وربما تنفّذوا في تجارة العبيد البرتغالية العابرة للصحراء في القرن السادس عشر، كما تشير الدراسات الحديثة

---

(1) Jaques-Meunié. Le Maroc saharien: des origines à 1670. Librairie Klincksieck 1982, 327

(2) Prussin, 331-332.

(3) Antonio de Almeida Mendes, "Child Slaves in the Early North Atlantic Trade in the Fifteenth and Sixteenth Centuries " In *Children in Slavery through the Ages* (eds. Gwyn Cambell, Suzanne Miers, Joseph C. Miller). Athens: Ohio University Press, 2009, p. 26.

(٤) نفسه، ص ٢٨.

لمارك بيتر وخوزي دا سيلفا هورتا[١]. وفي القرن التاسع إلىٰ القرن الثاني عشر فما بعده، وقعت تجارة الملابس في الأيدي اليهودية بشكل ملاحظ[٢]. وفي القرن السابع عشر سيلاحظ مونغو بارك وجودهم في تمبكتو، رغم أنه لاحظ أيضًا أنهم اعتنقوا الإسلام وكانوا يتحدّثون بلغة البيضان ويعملون في التجارة[٣]. وليست هذه الملاحظة مجرد خيال من مونغو بارك، بل إن الوثائق تشير إلىٰ هذا التداخل اليهودي في الصحراء. تشير وثيقة قضائية تعود إلىٰ منتصف القرن الثامن عشر إلىٰ طبيعية الحياة اليهودية في مجتمع البيضان، حيث تحاكم ثلاثة يهود في عام ١٧٥٠ إلىٰ القاضي محمد الأمين بن محمد الهادي بن أحمد بن محمد حتات. وتقول هذه الوثيقة:

> رافع لدىٰ كاتبه قوم من اليهود في شأن تجارة التي جاؤوا يبيعونها فأدلوا حججهم لديه وأصغىٰ إليهم حتىٰ أتقنها، فحكم بينهم بأن التجارة تتثالث بينهم لكل واحدٍ منهم الثلث من تلك التجارة، مساوين فيه ولا يفضل أحدٌ علىٰ أحدٍ بشيء ما. وتقابلوا علىٰ ذلك ورضوا به حين الترافع في يومين من ربيع النبوي، الثالث والسبعين والمائة والألف. قال وكتبه محمد الأمين بن محمد الهادي بن أحمد بن محمد حتات لطف الله به آمين. وشهد علىٰ هذا الولي بن محمود، وبه شهد محمد الحافظ بن عبد الله بن محمد العاقب الحاجي لطف الله بهم[٤].

ولم يكن العبور إلىٰ الصحراء دومًا عبورًا تجاريًا، فيذكر الشهرستاني في «الملل والنحل» أن مؤسس طائفة يهودية ذهب إلىٰ قبيلة بني موسىٰ بن عمران فيما وراء الرمال[٥]. وفيما يتعلّق بيهود الأعالي، فإن الصحراء ظلّت حاضرة دومًا في

---

(1) Mark Peter and José da Silva Horta. *The Forgotten Diaspora Jewish Communities in West Africa and the Making of the Atlantic world.* Cambridge: Cambridge University Press, 2011, 174. Trade in the Fifteenth and Sixteenth Centuries.,19-35

(2) Prussin, 337.

(3) Mungo park, *Travels in the Interior Districts of Africa* (London: Philadeliphia, 1799), 204-205.

(٤) وثيقة مخطوطة، صورة من الأصل وجدتها بحوزة الدكتور سيدِ أحمد بن الأمير.

(5) Hirschberg, 329.

الخرائط وفي الفولكلور والأساطير. وتغطي خرائط الرسامين اليهود منطقة التجارة القوافلية، حيث تشير إلىٰ السودان بـ **السوام** وتمبكتو ب**تنبوخ**[1]. أما الشيء الآخر الذي أدخلته هذه المجتمعات إلىٰ الصحراء، بحسب بروسان، فكان التمائم والقلائد والأختام التي ازدهرت في محتمعات البيضان والسونينكي والبولار. وكان البدو الموريتانيون يتحصّنون بالتمائم التي استخدمت فيها الخيمياء اليهودية المليئة بالمربعات السحرية والجداول اليهودية، وذلك من أجل الوقاية من السحر والعين. وربما بالغت قراءة بروسان في تأصيل كثيرٍ من الممارسات إلىٰ اليهود. ومن الأرجح أن هذه التقديمات والابتكارات لم تكن مجرّد استقدامات يهودية، بغضِّ النظر عما تعنيه هذه اليهودية، وإنما كانت تطوّرات في نظام الدلالة الصحراوي وعلاقاته مع الآخر.

---

(1) Hirschberg, 324-335.

- ٧ -

صعود السونينكي: مملكة غانا (واغادو)

«فتحوا شمال إفريقيا، ولكن الصحراء لم تكن مرحابة فمنعتهم من أي توسع إلىٰ الجنوب»

ستانلي بول لاين

في القرن الثامن حتىٰ القرن الثالث عشر كانت سياسة الجنوب، في السودان الإفريقي، تشبه، وإن بشكل سطحي، سياسة الشمال الصحراوي. في الوقت نفسه الذي بدأ فيه القادمون من الشمال يفدون إلىٰ المجال الموريتاني ويكونون به سلطة «أنبيه» المعتمدة علىٰ التجارة والحرب، كانت الصورة نفسها تُشاهد في الجنوب: قادمون من حوض نهر النيجر يصعدون إلىٰ شمال الجنوب، مكوِّنين دولة قوية فيه. وستبدأ السلطتان: الدولة الصنهاجية ودولة غانا أو دولة واغادو، في التوسُّع إلىٰ درجة الاحتكاك والتبادل الذي سيصل إلىٰ تجارة مزدهرة وإلىٰ مواجهات في العهد المرابطي.

من الواضح الآن أن هذه الدولة الجنوبية كانت دولة السود المحليين. وهذا الأمر لم يكن واضحًا لوقت، فقد نسجت الأساطير التي تسلّلت إلىٰ بعض كتب التاريخ أصلًا من البربر لأقوام انحدروا من الشمال إلىٰ الجنوب وأسّسوا فيه دولة عمرها ألف عام قبل ظهور دولة غانا[1]، بينما ذهبت مصادر أخرىٰ إلىٰ اعتبار

(١) يمثل هذا نقاشًا بين المؤرخين وإن كان الرأي التوفيقي يرىٰ أن المملكة الغانية تم تأسيسها بشكل تشاركي من قبل عناصر من الشمال والسود القادمين من الجنوب في الفترة الطويلة ما بين ٤٠٠ =

هذه الدولة دولة حامية الأصل أسّسها قادمون من منطقة النيل في ميرو Meroe التي عرفها الإدريسي بمورة. غير أن غياب أي فخار أو خزف من ميرو، وغياب التقاليد السياسية للبربر في مجال الجنوب الموريتاني والشمال المالي قبل القرن العاشر جعل من الصعب التسليم بدولة غانا ذات الأصول الشمالية أو الشرقية. ويبدو أنه من الصعب الحديث عن سلطنة في جنوب الصحراء قبل القرن الخامس الميلادي(١).

يخمِّن باحث الحفريات، باتريك مَنْسون، أن الألفية الميلادية الأولىٰ شهدت تكوّن نظام قبلي استبدادي داخل القرىٰ السوداء الصغيرة في القرىٰ التيشيتية الولاتية القديمة، وأن هذا النظام أشاع الأمن وألغىٰ حالة الحرب التي كانت دائمة والتي انعكست علىٰ الأبنية التي أصبحت مهمة جدًا في المئوية التاسعة قبل الميلاد. وسيبقىٰ هذا النظام محدودًا في المجتمع السوداني الذي انهزم بفعل هجمات البربر في القرن الرابع قبل الميلاد. غير أن النظام القبلي المبني علىٰ الزعامات القبلية العسكرية بقي موجودًا في المجتمع الأسود، وكان الأصل لظهور دولة غانا(٢).

في عام ٧٩٠ الميلادي، إبان الأحداث التاريخية الكبرىٰ في شمال الصحراء ووسطها وإبان تأسيس الاتحاد الصنهاجي، بدأ شعب جنوبي هو الماندي في القدوم إلىٰ المجال الموريتاني. إن قضية السونينكي هي موضوع إشكال، فالروايات التاريخية تنسب لهم مقدمًا في القرن الثامن بينما يعتقد مؤرخون آخرون أن حضارة تيشيت كانت امتدادًا لهم؛ نظرًا لتشابه العمران والآليات التيشيتية القديمة مع نمط البناء المنزلي وإنتاج الخزف في مجال السونينكي في شمال مالي، إلا أن هذه المعطيات الأخيرة لم تثبت بشكل قاطع. وفي جميع الأحوال،

= و٧٠٠ ق. م، وأن الحاجيات المتبادلة هي سبب ظهور المملكة. لقد هاجر بعض البربر وسكنوا مع الزنوج الساراغولي علىٰ نهر النيجر بين تمبكتو وسيغو، وهؤلاء البربر كانوا فلاحين وتجارًا وأصبحوا ملوك السودان بفعل إتيانهم بثقافة الحديد والخيول مما جعلهم يتغلبون.

(1) Patrick J. Munson . Archaeology and the Prehistoric Origins of the Ghana Empire. The Journal of African History, Vol. 21, No. 4(1980), pp. 457- 466,457-459.

(٢) نفسه، ص ٤٦٦.

فإن هؤلاء السونينكي يعود لهم الفضل في تأسيس أول دولة إفريقية (أو ثاني دولة إفريقية -بحسب رواية مَنسون- في ذلك التاريخ/ ٧٥٠). وعلىٰ كلّ حال، لم تكن صفة «السونينكي» هي اسم هؤلاء السكان وقت قدومهم إلىٰ المجال، بل كانوا أحفاد قبائل تسمىٰ ديا لمتا Dia-Lemta وغوان Guan وغارا Gara، وكانت مجموعات منهم تمارس الزراعة في حوض النيجر. غير أن المجاعة الكبرىٰ المحتمَلَة التي ضربتها في أواخر القرن الثامن[١] ربما أدّت إلىٰ نزوحٍ جماعي إلىٰ الشمال[٢].

❁ ❁ ❁

انحدر السونينكي من العائلة الماندية التي تفرعت منها عدة قبائل ومجموعات، وكان هؤلاء المهاجرون منهم هم تفرُّعَها الموجود في الشمال: شمال مالي وجنوب موريتانيا. وسيعرفون أيضًا وأحيانًا بـ «**السراغولي**»، التي ربما كانت اسمًا أعطاه الأجانب للسونينكي ويعني: **الناس الحمر** (من الحمرة الضاربة إلىٰ البياض)[٣]، وسيغدو لاحقًا غير معياري وحتىٰ قدحيًا أحيانًا، مثله مثل مصطلَح البربر، الذي استُعيضَ عنه في الحداثة بالأمازيغ. وتمامًا كمعظم الدول القديمة والمحكيات الارتجاعية للقوميات والقبائل، فإن دولة السونينكي حظيت بمؤسّس وأبٍ أسطوري في وقت الهجرة إلىٰ الشمال. أصبح هذا الأب قائد سفر الخروج السونينكي عندما تقدّم برهطه من حوض النهر في شمال النيجر وجنوب مالي حتىٰ موريتانيا الحالية، حيث سيساهم شعبه علىٰ مدىٰ القرون اللاحقة لهذه الهجرة في توطيد هوية واستقرار ومجال شعبه. كان اسم هذا الرجل ديابي سيسىٰ وقد عُرف بلقب «**ماغا**» الأرستقراطي[٤]، وقد دخل اسمه في الملحمة الإفريقية حول تأسيس تاريخ السونينكي، وبمرور الزمن أصبح شخصية أسطورية تكتنف حقيقتها الأساطير والخرافات.

---

(١) لم تورد الآثار التاريخية هذه المجاعة، غير أن ميرويتز لجأ إلىٰ هذا الافتراض بناء علىٰ تحليليه للهجرات الإفريقية في الظروف المشابهة.

(2) Meyerowitz. Note on the Origin on Gana , p, 322

(3) Nehemia Levtzion. The Early States of Western Sudan to 1500. In History of West Africa. Vol 2. eds. J. F. Ade Ajayi & Michael Crowder. New York: Longman, 1971, p.132.

(٤) نفسه.

تقول الحكايات السونينكية -التي يتداخل فيها الأسطورىٰ بالتاريخي والملحمىٰ بالواقعي، والتي ظلّت تُغَنَّىٰ عبر الأجيال من قبل الشعراء الغنائيين السونينكي- إن والد ديابي سيسىٰ كان دينغا وإنه قدم من الشرق الأوسط حيث نزل لبعض الوقت في جنه-جنىٰ في شمال مالي التي كانت قد بدأت تزدهر في القرون الأولىٰ قبل الميلاد. ثم لسببٍ ما قرّر الهجرة إلىٰ بلدة ديا في وسط الدلتا في حوض النيجر. وهناك بدأ في الاستقرار فأنجب أبناءً سيكون لهم شأنٌ في تأسيس قبائل سنونكية في البقاع الساحلية. ولم يستقرّ الأب السونينكي نهائيًا في وسط الحوض النيجري، وقرّر لأسباب ما الترحل إلىٰ الشمال، غير بعيد من نيورو المالية(١).

لقد تمّ اليوم إثبات المعطيات حول تنقُّلِ السونينكي بين المنطقة من حوض النيجر قبل الهجرة شمالًا(٢)، غير أن الملحمة السونينكية تأتي بأحداث أسطورية. وقد أصبحت هذه المحكيات جزءًا من الفولكور ومن الثقافة الماندينغية. والتاريخ الماندي -كمعظم التاريخ الإفريقي- هو تاريخ شفاهي سردي تمّ تدوينه في الذاكرة الشعرية الغنائية للفنانين الشعراء المعروفين بالـ«**غريو**» الذين كانوا -وما زالوا- يغنُّون التاريخ في المناسبات التاريخية والملحمية علىٰ غرار ملحمة **بيوولف** الأنجلوساكسونية أو السير الملحمية العربية (**الزير سالم وذات الهمة وسيرة عنترة والسيرة الهلالية** وغيرها)، حيث تتمّ الإضافات الأسطورية والشِعرية والتفخيمية للحدث التاريخي الأصلي مع إنشاده في المناسبات الاجتماعية علىٰ مرِّ القرون. لهذه الأسباب تداخل التاريخي بالأسطورىٰ في الحكايات الإفريقية بخصوص دولة غانا، ولهذه الأسباب استحقّ إعطاءه حظًا في السرد التاريخي واستدخاله فيه.

❁ ❁ ❁

كان غاصير Gassire، صاحب المكانة الأسطورية، أوّلَ شاعر متغنٍ بالأمجاد السونينكية، ومثله مثل امرئ القيس في التراث العربي، فهو «أوّل» من نسج الشعر السونينكي بالطريقة التي سيتم بها معرفته وسلكه لاحقًا، وقد اخترع نمطًا شعريًا يُسمّىٰ **بوي** pui، وهو القصيدة الغنائية التمجيدية. وحسب الأسطورة، فإن غاصير

(1) David Conrad. *Empire of Medieval West Africa*. New York: Facts on File, 2005, 18.

(2) Meyerowitz, 322.

بدأ في الاستماع لطيرٍ التَهَمَ الثعبانُ بيضَه، وقام الطائر المعروف باسم **كِن** ken بخوض معركة مع الثعبان بدأها بسجع قصيدة حماسية قبل الاشتباك، ثم هاجمَ الثعبانَ وقضىٰ عليه قبل أن يطير إلىٰ غصن الشجرة ويبدأ في التغنّي بأمجاده. عندئذ بدأ غاصير في الاستماع لغناء الطائر وتعلّم منه. ولقد وصلت أغانيه عن تاريخ وأمجاد السونينكي إلىٰ الأجيال اللاحقة التي حولتها إلىٰ **دوسي** Dausi التي تحكي ملحمة السونيكىٰ ومملكتهم، واغادو، الشهيرة بغانا[١].

حسب **الدوسىٰ** فإن دياغا، أبا السونينكي، استقرّ جنوب نيورو، غرب مالي وجنوب الحوض الشرقي بموريتانيا، ونزل بمكانٍ مأهول بالجن والأرواح التي كانت تسكن الغابة، ودخل في صراع معها، وقاتل شيخَ الجن وتمكن من قتله وتزوّج بناتِه الثلاث وأنجب منهن عدّة أولاد تفرّقوا في الأرض أسباطًا وأممًا. وتنتسب إلىٰ هذه الملحمة عائلات كانتي وسيلا وسيسي. الأخيرون سيصبحون الأسرة الحاكمة في إمبراطورية غانا. ملكَ دياغا طويلًا إلىٰ أن أصبح شيخًا وأُصيب بالعمىٰ، وأورثَ الملك لابنه، ديابي، الذي كان أصغر من ابن آخر هو خيني Khiné[٢]. وحسب الأسطورة، فإن ديابي تمكّن من أن يصبح ولي العهد بخدعة استغلّ فيها عمىٰ الوالد-الملك، وإن كان البعض يعتقد أن ديابي أصبح وليًا للعهد بفعل نظام يتعلّق بأمومية النظام الاجتماعي لدىٰ السونينكي الأوائل[٣]. ومهما يكن من أمر، فإن حرب وراثة علىٰ الملك اندلعت غداة وفاة دينغا.

---

(1) - Patrick and Fredrick Mickinssack. The Royal Kingdom of Ghana , Mali and Sanghay. P. 6).

وتتشعب صيغ الدوسي التي تحكي ملحمة واغادو من نسخة إلىٰ نسخة. وقد جمع شارل مونتي هذه الملاحم في مقال نشر في عام ١٩٥٣. انظر:

Ch: Monteil.La Legende du Ouagadou et les origine des soninké. In Melange Ethnologique, mém. De l'institut Francais de l'frique Noire, No, 23, Dakar, 1953. Pp. 359-408.

(2) Conrad, 18.

(٣) ماتريشا وفردريك ما كيساك، كونراد، ١٨٨.

رغم هذا التصور، فإن بعض البحوث تشكك في أمومية النظام في دولة غانا وتعتقد أنه تعلق بحالة حصرية، هي انتقال الملك إلىٰ تنكامين الذي أخبر عنه البكري.

Nehemia Levtzion, "Was Royal Succession in Ancient Ghana Matrilineal?" *The International Journal of African Historical Studies*, 5. 1(1972), pp. 91-93

وللوهلة الأولىٰ انهزم ديابي سيسي الذي لجأ إلىٰ الأدغال خوفًا من نفوذ أخيه، خيني. وتذكر الملحمة أن طبلًا سحريًا نزل علىٰ سيسي استطاع منه الحصول علىٰ أربعة جيوش بقوادها، ووعدهم بأن يصبحوا حكام الأركان الأربعة للمملكة بعد تغلّبه. وبايع القادة سيسي الذي بدأ في الزحف علىٰ المدينة التي يحكمها أخوه، ولكنه لم يستطع تحقيق النصر إلا بعد التحالف مع حية عملاقة تسمىٰ «**واغادوا بيدا**» أو «**بيدا**»؛ وحقّق النصر(١).

من الأرجح الآن أن ديابي سيسي كان شخصية تاريخية حقيقية عاشت في القرن الثامن. كانت «العاصمة» كمبي صالح (جنوب شرق موريتانيا، غيرَ بعيد من مدينة تمبدغة) قد صارت في ذلك الوقت عبارة عن مدينة اقتصادية وملتقىٰ تتوقّفُ عنده قوافل الإبل والحمير، وتعقد فيها الصفقات، وتُحملُ منها البضائع في القوافل(٢). وتذهب أغلب الروايات إلىٰ أن ديابي سيسي قام ببناء مدينة كمبي صالح وجعلها عاصمة ملكه بعد تغلبه علىٰ أخيه. غير أن مؤرخين تحدّوا الحديث عن كمبي صالح باعتبارها عاصمة للملك سيسي، وقيل في المقابل إن العاصمة كانت متنقِّلة مع الملك أنّىٰ انتقل وذلك لتفادي المركزية التي قد تكون خطرة(٣)، إلاّ أن المدينة الواقعة في الحوض الجنوبي الموريتاني بقيَت غالبًا مركز السلطة في غانا. وربما فيها شرع سيسي في توطيد دعائم ملكه وتأسيس نظامه الاجتماعي وتوطيد السيسي بصفتها الأسرة النبيلة المالكة، أما عائلات كانتي وسيلا ودرامي فقد كانوا نواة المزارعين والفلاحين والحدادين والرعاة والشعراء الغنائيّين والجنود والعمال. كانوا الشعب.

إن القصة الميثولوجية المذكورة لتدخل في مجال الأدب أكثر مما تدخل التاريخ، غير أن المعلومات التاريخية تتخلّلها من أمكنة عدة: تنقُّلات شعب السونيكي، وصراعات الإخوة، وتقسيم العمل بين العائلات الكبيرة، وبناء كومبي

---

(1) Conrad, 18; Patricia McKissack and Fredrick McKissack. The Royal Kingdoms of Ghana, Mali, and Songhay, Clive, IA: Perfection Learning, 2010, 8.

(2) McKissack and McKissack, 19.

(٣) نفسه.

صالح، وشخصية الأب المؤسس ديابي سيسي الذي كان أول **غانا** في التاريخ الموريتاني-المالي. وتعني «غانا»: الملِك، ولكنها بالأصل -وبالتزامن- عنَتْ الغابة، وهو الاسم الذي أطلقه الرحالة العرب علىٰ مملكة واغادو أو أوكار، وأعادوا تسميتها علىٰ اسم ملكها. وربما كان لقب غانا هذا مشتقًا من «جيانا» Gyana التي تعني منحدرًا من غيا أو ديا التي هي المدينة النيجرية التي قدم منها السونينكي إلىٰ مجال موريتانيا في نهاية القرن الثامن. الحقيقة الأكثر معقولية هي أن التنظيم الاجتماعي لدىٰ هؤلاء السونينكي القدماء تطوّر لأسبابٍ ما من مجتمع قبلي إلىٰ دولة منظمة، وهو ما كان طفرة هائلة في غرب القارة السوداء، ومن المؤكَّد أنه ما كان ليتم دون الاستفادة من الطاقات التقنية والحرفية للشعوب السابقة للإمبراطورية. وهو ما يجعلنا نفكِّر في ثقافة الحديد عند البربر وازدهارها عند سود المنطقة التيشتية لاحقًا، هذا طبعًا إضافة إلىٰ المسالك القوافلية وإتاحتها فرص المقايضة والثراء لشعب كومبي صالح.

لقد ملك عدة ملوك بعد ديابي سيسي يذكر منهم البكري: بسي، الذي تملّكَ وهو في أواخر عمره، في سن الخامسة والثمانين، واضطر -حسب الجغرافي القرطبي- إلىٰ التحايل علىٰ الشعب عندما فقد بصره؛ فاستطاع وزراؤه النجاح في التغطية علىٰ عاهته هذه التي قد يهدُّد اكتشافُها مُلكَه، وحافظ علىٰ العدل والقسط. وعندما توفي خلفه ابن اخته، تنكامين، كما جرت العادة في نظامِهم الأمومي. ولقد اعتبرَ البكري أن الأمر يتعلّق بالشك في حالة ابن الملك بينما الأمر خلاف ذلك في حالة بنات الأخوات[1]، وإن كان المؤرِّخ نهيميا لفتزيون يشكك في قصة الأمومية المزعومة.

❊ ❊ ❊

في عهد تنكامين، الذي كان معاصرًا للبكري (١٠٩٤-١٠١٠)، كانت المدينة مزدهرة وكان هو نفسه بحسب البكري «شديدَ الشوكة، عظيم المملكة، مهيب السلطان»[2]. ويبدو في هذه الفترة أن النبلاء السونينكيين الذين تشير إليهم

(1) Conrad, 188.

(٢) البكري، ص ١٧٤-١٧٥.

الدوسي قد مكثوا في بلاط ملكي يسمىٰ «**الغابة**»، كان يوجد به قصر الملك مسيّجًا بسور كبير بداخله القصور والقباب، بينما كانت تجاوره المنازل الحجرية والخشبية المبنية من خشب السنط. كانت المدينة الملكية تتراءىٰ للزوار أنّها برجٌ عاجي، وقد نقل التجار الذين تحدّثوا للبكري إليه أنّها بُنِيت خاصّةً للكهنة والشعراء والفنانين، وأن معالمها كانت أمجاد الطبقة الحاكمة من قبور الملوك والنبلاء، المحروسة بعناية من قبل الجنود. كان البلاط الملكي مكانًا لرفاهية الحكام، ومكانًا يُقَدّسون ويُبَجلون فيه، ولكنه كان أيضًا مركزًا لممارسة السلطة ونوعًا من السلطة الرقابية والعقابية، حيث كانوا يودِعون أعداءهم والمحكوم عليهم في مكان لا يُخلَصُ إليهم فيه[١].

بحلول القرن العاشر كانت المملكة السونينكية قد أصبحت غنية ومستثرية، وقد حرص ملوك كومبي صالح علىٰ التأكيد علىٰ يسارهم وغناهم أمام الأجانب والعوام، متعمِّدين عقد المجالس والمناسبات التي حرصوا فيها علىٰ إبقاء التفاصيل والتشريفات التراتبية ماثلة للعيان. وفي هذا السياق حرّمَ الملك علىٰ رعيته ممن يدينون بدينه لبس الملابس المخيطة، ولم يكن هذا حقًا مُتاحًا إلا له ولولي عهده، ابن اخته، أما بقية الرعية فما كان لها سوىٰ التلفع في القطن والحرير والديباج، الأقل قيمة اجتماعية من اللبس المخيط[٢]. وبطبيعة الحال، فقد كان إظهار الذهب -ثروة البلاد- جزءًا من هذا التبجح. وهو ما لم يغب عن أعين الأجانب الذين كان أبرز ما عرفوه عن المملكة السودانية هو وفرتها هذه علىٰ الذهب. وفي القرن العاشر في الشرق الإسلامي كان الجغرافي الموسوعي، ياقوت الحموي (١٢٢٩-١١٧٩)، ينقل عن غانا أنها المدخل الوحيد إلىٰ بلاد الذهب، و«لولاها لتعذّرَ الدخول إليهم؛ لأنهم في موضع منقطع عن الغرب عن بلاد السودان فمنها ينزلون إليها»[٣]. ولم يكن ما نقله الحموي غير انطباع سائد. فقبل الموسوعي العربي الرومي عاد الرحالة العرب بصور زاهرة عن أُبهة البلاط

(١) نفسه، ص ١٧٥.

(٢) نفسه.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٨٤.

الذهبي في غانة: ملك يتزيّن بزينة النساء، ويعلّق القلائد الذهبية في عنقه وفي ذراعيه، ويضع تاجًا من «الطراطير المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة»[1]، وفي المجالس والمناسبات العامة كان يجلس على عرش مهيب يتربّعُ فيه في قبة محاطة بعشرة أفراس مُلَبّسَة بثياب ذهبية، وخلفه يقف عشرة غلمان ماسكين بالسيوف المرصعة:

> وهو يجلس للناس والمظالم في قبة، ويكون حوالي القبة عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الحُجف والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أولاد ملوك بلده قد ظفروا رؤوسهم بأنواع الذهب وعليهم الثياب الرفيعة، ووالي المدينة بين يدي الملك جالس في الأرض وحواليه الوزراء جلوسًا على الأرض. وعلى باب القبة كلابٌ منسوبة لا تكاد تفارق موضع الملك تَحرُسَه، في أعناقها سواجير الذهب والفضة، يكون في الساجور عدد رمانات ذهب وفضة. وهم يُنْذِرون بجلوسه بطبل يسمونه دبا، وهو خشبة طويلة منقورة، فيجتمع الناس[2].

عند هذه اللحظة يجلس الملك السونينكي ويأذن للوفود والرعية بالدخول عليه. ولهم في ذلك مراسمُ مختلِفة. فأما رعاياه في أوكار فقد تلزّمَ عليهم أن يؤدُّوا التحية بأن يجثوا على ركابهم وينثُروا التراب على رؤوسهم. وأما الأجانب فقد أُعفوا من نظام الدلالة المحلية. وقد حرص الملك على الظهور العلني محاطًا دومًا بقادة عسكريين وبعائلته الكبيرة المتكوِّنة من عدة زوجات. ولكنه -خلافًا لبهرجته العلنية- كان يعيش دومًا بمعزل وبمأمن عن العوام. وكان حكمه من وراء الستار. أما في التفاصيل التسييرية والإدارية، فكان الحكام المحليون هم الأكثر حضورًا. ولكنه هو من كان يعيِّنُهم بسلطته السياسية الشمولية والمطلقة، وكانوا دومًا من قبيلته؛ وكان يناقش الاتفاقيات ويصدر العفو عن السجناء. كان أيضًا من وظائفه الجلوس لاستقبال الزوار المهمين. وبرغم أن كل الصلاحيات كانت في يده، إلا أن زوجاته كن أيضًا يتمتعن ببعض النفوذ.

---

(١) البكري، ص ١٧٥.

(٢) نفسه، ص ١٧٦.

لم يكن الملك يستمدُّ سلطته من امتلاكه لمناجم الذهب فحسب، وإنما من سلطته كحاكم عسكري يفرض الأمن في البلاد ويأخذ الجبايات علىٰ الأموال والتجارة، كما كان يفعل الصنهاجيون في الأراضي الواقعة شمالًا. ولكن جبايته -بعكسهم- كانت جباية علىٰ نشاط تجاري أكثر مما كانت اقتصادًا حربيًا؛ فكان يفرض دينارًا من الذهب علىٰ كل حمار ينقل الملح إلىٰ البلاد وديناران علىٰ إخراجه، وكان يستفيد خمسةَ مثاقيل من حمل النحاس وعشرة مثاقيل علىٰ حمل المتاع. ومع ذلك، فإن المصدر الأساسي لسلطته كان احتكاره للملكية القانونية والعملية للذهب الخام؛ ولم يكن للعوام من الذهب إلاّ التبر، أو دقيق الذهب. ولقد حلّل البكري احتكاره للذهب الخام بأنه الضامن لقيمة الذهب وغلائه، وبمعنىٰ ما كان التحكّم في حركة الذهب نوعًا من التحكّم في التضخم[١].

كانت عظمة الملك وأبهته وتشريفاته تستمرُّ حتىٰ بعد موته، فكانت مراسيم دفنه تُقامُ علىٰ نظام يُشبه ما كان عليه الفراعنة في قديم مصر؛ إذ كان جثمانه يوضع علىٰ سرير وتُبنىٰ عليه قبة خشبية وتدفن معه زينته وحُليه التي كان يتزيّن بها وأوانيه التي كان يستخدمها في حياته، وكانت تعدُّ له وليمة ضخمة تدخل معه ضريحه. ولكنه زاد علىٰ التقاليد الفرعونية بما يشبه بعض التقاليد الهندوسية القديمة، فكان يدخل معه بعض خدامه وهم أحياء، ثم يُطَمرُ كل هذا بالتراب حتىٰ يصير في وضعية هرمية كثبانية «كالجبل الضخم»[٢].

❁ ❁ ❁

تعلّقَ دين غانا بعبادة وثنية وصفها البكري بالمجوسية، وكان لهذا الدين كهنة يُقِيمون أركانه وشعائره، وقد خُصِّصَ لذلك سكنُهم في المدينة الملكية علىٰ بعد ستة أميال من المدينة العامة المفتوحة للعوام. وكان من أدوارهم الكهنوتية الإشراف علىٰ المراسيم والطقوس الدينية، كدفن الملك وتقديم القرابين وذبحها ونصب الخمور علىٰ القبور. إلا أن المملكة المانديّة لم تكن تتبنّىٰ الوثنية دينًا

---

(١) نفسه.

(2) Chancellor Williams, *The Destruction of Black Civilization. Great Issues of a Race from 4500 B. C. to 2000 A. D.* Chicago: Third World Press, 1976, 197.

رسميًا بالمعنىٰ الذي توطّدَ عند بعض الممالك في أماكن أخرىٰ من العالم؛ ذلك أن حرية العبادة ظلّت متروكة لأمزِجة الرعية. بل إن الدين «الوثني» الذي كان سائدًا في القرن العاشر لم يكن وثنيًا صرفًا، وإنّما تتخلّله وتُؤسِّسُ له ميتافيزيقيا توحيدية. فقد اعتقد الغانيون أن للكون إلهًا ساميًا خلق الكون وخلق آلهة تباشر المسائل اليومية نيابة عنه، وهي آلهة يتكفّل كلٌّ منها بشأن من شؤون الحياة. وآمنوا بالأرواحية: فلكل شيء من الزواحف والوحش والطير والحشرات والأشجار والأنهر والهواء أرواح. وكانوا يعتقدون أن للأسلاف قدرة علىٰ معاقبة أحفادهم وأولادهم بعد مماتهم؛ لذا كانت طاعة الأسلاف مقدّسة. بل إن التفسير اليومي للمشاكل كان بأن أهلها لم يحترموا أسلافهم[(١)].

ومن الأرجح أن الديانات الوثنية في المملكة الغانية كانت متعدّدة ولم تكن دينًا واحدًا، فالأساطير السونينيكية تشير إلىٰ عبادة ثعبان إلهي عملاق يدعىٰ **بيدا**. وقد نقل البكري تفاصيل تؤكِّدُ هذا المنحىٰ وذلك في ملاحظاته لديانة شعب زابفوا في بلاد السودان الذين كانوا يعبدون ثعبانًا له رأس كرأس الجمل وله عُرْفٌ وذَنَب، وتُقدّم له القرابين من الطعام والعسل واللبن[(٢)]. أما الأساطير السونينكية فتتحدّث عن قرابين بشرية حقيقية عبارة عن جارية حسناء كلّ عام. ومهما يكن من أمرٍ، فقد كانت وثنية غانا متسامحة؛ إذ كان الملك يحترم الديانة الإسلامية بشكل ملحوظ، فسمَحَ ببناء مسجد في المدينة المَلَكية حتىٰ يكون قريبًا من زُوّارِه المُسلمين، كما قرّب الزوار المسلمين فجعلهم وزراء ومستشارين ومترجمين ومسيرين للخزائن. ولم ينتظر بناءُ المسجدِ مقدمَ المرابطين إلىٰ مدينة كومبي صالح الوثنية. وتأكيدًا علىٰ خصوصية المسلمين، قام الملك بإعفائهم من السلام الوثني فكانوا يصفِّقون بأيديهم عند الدخول بدلًا من أن يطمروا أوجههم بالتراب، كما كان يتحتّم علىٰ الرعية الوثنية[(٣)]. ويمكن القول إن هذا النموذج المتسامح هو الذي كان يغلب، وإن كان يخبو أحيانًا، في عموم المجال الصحراوي والسوداني

---

(1) McKissack and McKissack, 35-40.

(٢) البكري، ص ١٧٢-١٧٣.

(٣) نفسه، ص ١٧٦.

في هذه الفترة، وإن كان أكثرَ ارتباطًا بالملوك الغانيين، أما لاحقوهم في مملكة مالي فسيفرضون علىٰ الزوار والوافدين، حتىٰ علىٰ الحجاج منهم وقاضي القضاة، عادات الانبطاح أمام الملك.

❁ ❁ ❁

كانت رعية ملك آوكار تتكوّن من قبائل ومِلِل تمتد من جنوب شرق موريتانيا (كومبي صالح) إلىٰ الجنوب العميق في مالي والنيجر. في هذه الفترة من القرن الحادي عشر كان الغانيون شعبًا من الماندي غالبًا، يرتدون الثياب الملحفية: المُلَحِّفة للجسد والمغطية للرأس، وكانت نساؤهم حليقات الرؤوس ورجالهم حليقي اللحىٰ، وقد عمل الكثير منهم في الزراعة واستخراج الذهب والملح ونقل الأمتعة بين القوافل التجارية[١]. وصحيح أن الغالبية الساحقة من سكان المملكة كانوا من الманديغ السود، غير أن حضور البربر كان ملحوظًا بها، خصوصًا في شمال مالي. وهو حضور وجدت له بعض الحكايات أصلًا تاريخيًا يتعلّق بوصول البربر بالإبل إلىٰ المنطقة في القرن الثالث قبل الميلاد. ولقد وُجِدَت آثارُ قطع نقدية مغربية في المنطقة الغانية تعود إلىٰ تلك الفترة السحيقة، كما أن قوافل الإبل الوافدة من الشمال قد وصلت للبلاد في هذه الفترة. وربما كان البربر هم القبائل التي حاربها السّونينكي الأوائل وهزموهم، وتشير إليهم الملحمة الماندية بأنهم الجن الذين تزوّج دينغا بناتهم[٢].

كان العوام السّونينكي في المملكة الغانية شعبًا مستقرًا غير مترحِّل ولم يُشاهَدوا غالبًا في القوافل التي كانت تجوب فيافي الصحراء والسودان. والسبب أنه برغم ازدهار التجارة في عهدهم إلا أنهم كانوا مزارعين وفلاحين في غالبيتهم، وإن عمل بعضهم في مناجم الذهب وفي النقل وفي اقتصاد الحرب. وربما كان السكان البربر هم الأكثر تخصصًا في مجال تجارة القوافل، أما البقية من قبائل الماندیغ والتكرور فحبّذوا الفلاحة والرعي، وإن كانوا قادرين علىٰ الاحتكاك بالشبكات التجارية لبيعها محاصيلهم. ولعلّ الرعوية العسكرية والدفاعية

(١) نفسه، ص ١٧٥- ١٧٧ .

(2) McKissack and McKissack,10-11.

الزراعية هي التي قوّت السونينكي الأوائل وجعلتهم يسيطرون علىٰ المدن والمساحات الزراعية الخصبة التي من المحتمل أن البربر أو الأغراب -أيًا كانوا- كانوا يُغيرون عليها بين الحين والحين[1].

لقد قدم البكري تفاصيل في عملية الفلاحة والزراعة الغانية، فأشار إلىٰ كيف كان الغانيون ينوِّعون المنتوج الزراعي ما بين زراعة مطرية وأخرىٰ نهرية، وبذلك يحصلون علىٰ حصاد زراعي طوال العام[2]. ومن هذا التنوُّع نتجت محاصيل زراعية مختلفة من مناطق مختلفة، متيحةً بذلك نوعًا من التخصص الزراعي: فقد كانت مدينة مداسة مثلًا «بلد أرز وذرة كبيرا»[3]، أما في بقية البلدان كييتي وغيرها فقد تنوّعت المحاصيل بين الذرة والحنطة والفوني والقافي واللوبيا والبصل والجميز والكرنب والثوم وغيرها[4]. وعلىٰ العموم، زادت المحاصيل من الشعير والذرة والقطن والقمح والبطاطس، ووصلوا إلىٰ إنتاج زائد من الشعير، بعكس القمح الذي كانوا يستوردونه[5]. ويحكي لنا العمري أن الرقابة علىٰ الإنتاج الزراعي كانت تتمّ بأحكام قاسية، بحيث إن الملك كان إذا اطّلَعَ علىٰ سرقة ثمار القافي قطع رأس سارقه[6].

ويمكن القول إن الزراعة انتعشت بفعل استثمار التجارة فيها، ولكنها ازدهرت أيضًا بفعل تطوُّر التقانة الزراعية، وخصوصًا بفعل وجود طبقة مختصة بالعمل في مجال الحديد. فالحدادون كانوا طبقة متنوِّعة ومتغلغلة في المجتمع وكانوا يستخدمون النار ويصهرون بها الحديد، وبعضهم كان يصوغ الحلي والذهب والنحاس والحديد هذا عدا الحدّادين العامين المتخصصين في مباشرة المعادن بشكل عام. وكان لكل طبقة من هؤلاء طقوسها وآليات اشتغالها. وحسب أساطير

---

(١) نفسه، ص ١٠.

(٢) البكري، ص ١٧٧.

(٣) الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تصحيح هنري بيرس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية بالجزائر، الجزائر، ١٩٥٧، ص ١١.

(٤) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيىٰ بن محمد الكرماني ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ٢٠٠٢، ج ٤ ص ١١١.

(5) Williams. The Destruction of Black Civilization, 198

(٦) العمري، ج ٤ ص ١١١.

غانة، فإن الحدادين كانوا سحرة وكانوا أبناء الأرض الأوائل، الذين كانو يُدعون «**فان**» أو البيضة الأولىٰ التي فقست منها الحياة[١]. ولقد توحّدت هذه الطبقة في اتحادات من الإسكافيين والسكّاكين والفخّاريين والنحّاسين والصفّارين والحدّادين وتمكّنت من توحيد جهودها[٢]، ما سمح لها بإنتاج آليات فلاحية دقيقة وعملية. وبالإضافة إلىٰ خصوبة الأرض في المساحات الغانية، فإن براعة الحدادين ونجاعة آلياتهم، المعروفة أيضا بـ «**فان**»، نسبة إلىٰ مستخدميها، ساهمت في تخصيب التقنية الزراعية وزيادة المنتوج الزراعي[٣]، وهو ما سمح بتصدير المحصول الزراعي إلىٰ المدينة التجارية، أوداغست، وبيعه فيها.

عادَ ازدهار المملكة في غالبه إلىٰ المتاجرة مع القادمين المسلمين الذين كانوا يأتون لبلاد غانة بكثير من السلع والبضائع من الحرير والفرو والجواهر والأواني والبضائع التي لا تُوفِّرها أرضهم بوفرة، وخصوصًا القمح والخيل. ولا شكّ أن الطرق القوافلية المتشعبة إلىٰ السودان وإلىٰ إفريقيا الوسطىٰ عمومًا، قد عزّزت ازدهار التجارة وفتحت سبلًا لمختلفِ المشترين والبائعين والمُقايِضين، فكانت تتمثّل في ثلاثة طرق رئيسة: قافلة تنطلق من المهدية، وأخرىٰ تنطلق من سجلماسة وتمرُّ عبر أوداغست، وكانت هنالك قافلة مشرقية تنطلق من مصر وتمرّ عبر التشاد، غير أنها ستتوقّف عن السير في أيام الدولة الطولونية. وكانت هذه القوافل تُموّل بشكلٍ مُشترَك من التجار، الذين يجتمعون علىٰ تسيير القافلة مع جمالها وحماليها وعبيدها حتىٰ بلاد السودان. وبفضل هذه الحركة المستمرّة أصبح المال يتنقل بين الممالك المتاجرة، وأصبحت القوافل تعود بالدخل المدرِّ للتجار في بلاد السودان.

علىٰ أنه ما كان للمملكة أن تُصبِحَ إمبراطورية قائمة بفعل شعبها المزارع أو المتاجر وحده، وإنما -علاوة علىٰ ذلك- بفعل تشكّل أرستقراطية محاربة استطاعت تجنيد المزارعين واعتمدت علىٰ جيش ضارب تحتمي وتتوسّعُ به إن

(1) McKissack and McKissack, 22-23.

(2) Chancellor Williams, 198.

(3) The Oxford Encyclopedia of African Thought, vol 1. Oxford: Oxford University Press, 2010, 406.

دعت الضرورة، وقد حدث هذا خصوصًا في جنوب المملكة وشرقها عندما تمكّنت الأرستقراطية العسكرية من تسخير جيش كثيف وقوي للدفاع عن الأراضي السودانية وتنفيذ الهجمات عند اقتضائها. وبفضل هذا الجيش تمكّن الغانا في أيام البكري من القيام بعرض عسكري فيه مائتا ألف جندي من بينهم أكثر من أربعين ألفًا من الرماة، بحسب التعداد المبالغ فيه للبكري[1]، وهو رقم، حتىٰ وإن كان يبدو أسطوريًا، فهو كثيف جدًا حتىٰ بالنسبة إلىٰ الأرقام التي قدّمتها المصادر نفسها عن قوة الصنهاجية، التي كانت القوة الأولىٰ في المنطقة قبل تراجُعِها في قلاقل القرن العاشر قبل العهد المرابطي. ولكن، برغم قدرة الملك علىٰ حشد الألوف المؤلفة إلا أن نواة الجيش لم تكن غير بضعة آلاف، وربما بضعة مئات، أما الباقي فكان احتياطيًا من صميم المجتمع الأهلي يتمّ اللجوء إليه في حالات الضرورة القصوىٰ، الدفاعية أو الهجومية.

شكّل المئات أو الآلاف القلائل -ولكن الدائمون- في الجيش الغاني عنصرًا مسلّحًا يتلقّىٰ تدريبًا من نخبة المجتمع ويتقاضىٰ راتبًا دوريًا وتستخدمه السلطة في المحافظة علىٰ الأمن وفي إخماد الثورات وتأمين الحدود. ولم يكن يلعب فقط دور الجيش، بل ودور الشرطة كذلك وخصوصًا في لحظات السلام. وكان الجنود النظاميون يرابطون في دوريات ويسكنون في مساكن خاصة بهم ويلبسون زيًا نسقيًا تُميزه سراويل وقصديريات وخوذات جلدية أو قطنية مزينة ببعض الريش. وكأي جيش نظامي، فإنهم كانوا يُحافظون علىٰ احترام الرتب العسكرية التي كانوا يميِّزونها بألوان الصديريات التي كان يرتديها الجنود وبعدد الريشات علىٰ خوذاتهم[2].

ربما بفعل هذه القوة النظامية أمكن للغانا بسط نفوذه علىٰ أوداغست في فترة القلاقل التي مرّت بها صنهاجة وعلىٰ الممالك الصغيرة في الغرب والجنوب. ورغم هذا، فإن «الإمبراطورية» الصغيرة لم تصبح قوة عسكرية توازي المرابطين ربما بسبب غياب الخيل والإبل التي ضمنت تفوقًا لساكنة الصحراء. كانت خيول

---

(١) البكري، ص ١٧٧.

(2) McKissack and McKissack, 32-33.

الأفارقة قصيرة ما قلّلَ من قيمتِها العسكرية في مقابل الخيل العربية التي كانت تُستقدم من الشمال. وسيطرح هذا مشكلة عسكرية حقيقية لسكان السودان في القرون اللاحقة أمام هجمات البربر والعرب البيضان.

بيدَ أن الضعف العسكري الذي كانت تحتفظ به القرون اللاحقة لمنطقة غانا لم يكن محسوسًا دومًا في القرن العاشر. فالسلاح الغاني كان متفوقًا جدًا وكافيًا لضمان وجود مملكة تحكم عدة مراكز وقوميات. وقد ساهم في إفشاء ثقافة عسكرية في المجتمع. ففي مملكة «دو» -مثلًا- كان يفشو نمط الحرب بالنشاب، أما في «سامة» فكانوا يستخدمون السهام المسمومة[١]. وربما كان الأساس الجامع لقوة غانا هو قدرتها علىٰ احتكار الحديد وقدرة محاربيها علىٰ إنتاج أسلحة مرعبة منه للجيران[٢]، وهو ما لاحظه الزهري في القرن الثاني عشر عندما نقل أن مقاتلي غانا كانوا يهاجمون أعداءهم بالأقواس والسيوف وكان جيرانهم في وضعية مزرية؛ إذ لم يكن «عندهم حديد وإنما يقاتلون بمرازب الأبنوس»[٣]، أو بالرماح الخشبية. وبفضل احتكار الحديد -الذي كانت صناعته في المجال قائمة منذ قرون طويلة؛ إذ يعود أقدم استخراج للحديد في المنطقة إلىٰ القرن الثالث قبل الميلاد- تمكّنت غانا من السيطرة علىٰ المناجم الذهبية خصوصًا في وانغارا التي ستصبح مصدر رفاه نخب شعب غانا وسيرتبط اسمها به، بحيث إن تسمية وانغارا ستُطلق أحيانًا علىٰ الشعب الманديغي، الذين كان السونيكىٰ شعبَه الأساسي[٤]. وربما نبعت الحاجة لجيش قوي من الحاجة للدفاع عن المناجم الذهبية الكبيرة[٥].

لعلّ الطابع العسكري لغانا لم يكن غير نجاحِها في تنظيم المجتمعات

---

(١) البكري، ص ١٧٥.

(2) Williams. The Destruction of Black Civilization, 197.

(٣) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي علىٰ الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ص ١٢٥.

(4) A Levis H Gann and Peter Duigan. Africa and the World, 203.

(5) McKissack and McKissack, 25, 26.

العسكرية المحلية المتفرقة، وهو ما يمكن استنتاجه ليس فقط من كثافة الجيش الغاني وسيادة عادات الحرب في المملكة، بل في الطابع العام لملحمة «**الدوسي**» التي تتحدث عن «**الفادو**»، أو القادة العسكريين الكبار. وكان **الغانا** نفسه محاربًا، بل إن لقبه هو دليل علىٰ وظيفته الحربية؛ إذ كان يعني «سيد الحرب» أو الزعيم الحربي[(١)]. وما كان لتعاضد كلّ هذا الجيش تحت سلطة الغانا أن يتمَّ لولا الطابع العسكري/الإقطاعي للإمبراطورية. فكان السلطان المحارب أو السيد العسكري يتأمّر علىٰ مجتمع زراعي أو فلاحي، وهكذا بفضل الاعتماد علىٰ الحديد وعلىٰ التراتبية العسكرية تمكّن النظام القديم من إنتاج أول إقطاعية إفريقية، كما شخّصها المؤرخ الرائد بازيل دافيدسون[(٢)]. هذه الإقطاعية الحربية هي ما يفسر كيف أمكن بسط النفوذ علىٰ الممالك القصية في ساما وغارانتل وغاديارو وغالام وديارو وسوسو والتكرور. بعض هذه الممالك تم إلحاقه بقوة السلاح وبعضه بالسلم والمفاوضات والنفوذ[(٣)].

ولم يكن هنالك ما يضطر قوة غانا للاكتفاء بالدفاع عن النفس بدلًا من طلب الجيران والكسب من غزوهم. في الشمال كان جيش المملكة يغزو موسميًا بلاد بربرة وأميمة، حيث كان يقيم زنوج وثنيون، بغرض الاستعباد وجلب الرقيق[(٤)]. وفي غرب المجال السونينكي كان يقع في نفوذهم التكرور وبقية قبائل الманديغ. كان التكرور القدماء، بعكس اللاحقين، مزيجًا من المالينكي وأسلاف السيرير. وكانوا أوّلَ شعب أسود فيما وراء النهر يدخل الإسلام وذلك في القرن الحادي عشر. أما الماندينغ فتأخّروا عن الدخول في الإسلام قليلًا عن ذلك. أما التكرور اللاحقون فكانوا جزءًا من الثقافة أو اللسان االبولاري، وكان البولار اللاحقون

(1) Basil Davidson, *African Civilization Revisited: from antiquity to modern times*, New Jersey: African World Press, 1982, p. 85.

(2) Basil Davidsoni. Lost Cities of Africa, London: Little Brown, 1971, pp. 81-82.

(3) Williams. The Destruction of Black Civilization, 197.

(٤) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي علىٰ الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ص ١٢٥.

يتكوّنون من اتحاد عرقي بين مزارعين ومنمِّين: التكرور والفُلان، الذين كانوا من أواخر شعوب المنطقة اعتناقًا للإسلام في حوالي القرن السابع عشر. وتظهر جولة عبر منظار البكري تنوّع الشعوب واستقلال الممالك في بلاد غانة؛ فإلىٰ الجنوب من بلاط الملك كانت تقع مدينة سامفندىٰ، حيث كان يعيش رماة الواغادوا المحترفون في الرمي بالنشاب. وفي جنوبها كان إقليما غرنتل وبرسني[١]. وإلىٰ وراء ذلك كانت هنالك مملكة دو العسكرية بدورِها هي الأخرىٰ والتي كان لها ملك خاصٌ بها[٢]. ومن الواضح أن بلاد ملَلْ أو مالي كانت تتمتّع باستقلال أفضل من بعض البلدات في مجال غانا، فكان بإمكان ملكها إعلان إسلامه[٣]، بينما كان ملك الوكن يخفي إسلامه، ربما لعدم استقلاله[٤].

❊ ❊ ❊

تحكي الأسطورة كيف استعان ديابي سيسي في ثورته بأربعة قواد عسكريين سيعرفون باسم «**الفادو**» أو الحكام. وفي الواقع، فإن هذه الأسطورة كانت تأصيلًا لما كان عمليًا نموذجًا أرستقراطيًا عسكريًا متمثِّلًا في ملك متعاون مع حكام عسكريين محليين. ولقد كان تاريخ الإمبراطورية تاريخ الحكم العسكري الممركز في شخص الملك، المستقِرِّ في عواصمه، والممتدِّ بحكامه وقادته في المدن والتجمعات القروية. وكانت سلطة الأمراء الحكام -كما في الشمال الصنهاجي- نوعًا من الاتحاد القبلي[٥]، وإن كان اتحادًا أثبت من الاتحاد الصنهاجي الذي استمرّت فيه القلاقل والثورات علىٰ مرِّ العصور؛ فمثلًا قُتِلَ ثلاثة ملوك من بين الملوك القلائل الذين نعرف من الصنهاجيين قبل المرابطين كما حدثَت ثورات علىٰ بعض الملوك بينما لم يسجِّل التاريخ المكتوب ثورة علىٰ ملك سونينكي، إلا ما كان في بداية تشكُّل الدولة لدىٰ الحرب الأهلية بين الملِكين الأخوين دينغا.

---

(١) البكري، ص ١٧٧.

(٢) نفسه، ص ١٧٨.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، ص ١٧٩.

(5) Menchaka, 43-44.

رغم انتشار الزعماء السونكيين في أكناف دولة واغادو من الجنوب الشرقي الموريتاني إلىٰ النيجر في الجنوب والسنغال في الغرب، إلا أن حضور بقية القبائل المالينكية كان لافتًا وكانوا يعيشون متفرِّقين في الأرض السونينكية في القرىٰ والكَصور ويدفعون الإتاوات كرهًا ودرءًا. وسيساعدهم توطيد التجارة مع البربر والصنهاجيين في مساعدة السونكيين في إبقاء الشعوب الأخرىٰ تابعة لهم، فقد نسجوا علاقات سياسية متينة مع حلفائهم الأقوياء في الشمال، الذين كانوا يساعدونهم عندما تقوم القلاقل في أرضهم، فعندما كان يثور المالنكي والسونغاي كان البربر المرتبطون بالمصالح مع السلطة الغانية يقومون بالدخول لصالح حلفائهم. إن الدخول غير التقليدي لتين باروتان في القرن العاشر بهجومه الخاطف بما قيلَ إنّه خمسون ألف جمل وإسقاطه للملكة في صالح حليفه، هو دليل واضحٌ علىٰ دور البربر في تطوير السلطات السودانية وتقويتها.

ورغم هذا، استطاع بعض السونكيين والسونغاي الاستقلال عن السلطة المركزية وشكّلوا من مملكتي كانم والسونغاي دولتَيْن قائمتَيْن. كان السونغاي قبيلًا سونيكيًا استطاع الاستقلال عن التحالف الإجباري مع غانا. أما قبيلة ساوْ فقد نالت استقلالها بعد انفصالها بتسيير مملكة كانم الخاصة، وتأرجحت علاقاتهما مع مملكة غانا مدًا وجزرًا؛ فكانت المملكتان تضطران أحيانًا لدفع الإتاوة للملكة الكبيرة المجاورة. ولعل المملكة التي استقلّت بشكل كامل عن سلطان كمبي صالح كانت مملكة التكرور، إلىٰ جهة الغرب، ولو أنها بقيت تعترف بعض الوقت بالسلطة الرمزية للملك الغاني، وقد ضمّت وحدةً من الولوف والتكرور وستأخذ مسارًا دينيًا مختلفًا عندما أسلم أهلها. كانت مملكة تقع في الجنوب من أرض جدالة في الشمال السينغالي الحالي، وكان شعبها جزءًا من الشعب الموريتاني التاريخي، وسيساهِمون في تطويره وتنوّع تجربته. عُرفوا بالتكرور وعُرفت بلادهم ب**بلاد التكرور**، وهو مصطلح سيصبح شاملًا بحيث سيعني أحيانًا حتىٰ البيضان.

❀ ❀ ❀

لم تكن قوة غانا تكمن حصرًا في سلطتها أو جيشها، وإنما كانت في علاقاتها التجارية وأنشطتها المترتبة علىٰ ثروتها الخام. كان الذهب في هذه الفترة عمود الثروة والقوة في العالم، وكان دافِعًا للنشاط التجاري للإسلام. وقد اندفع المكتشفون والرحالة العرب بعد سيطرة الإسلام بحثًا عنه في أمكنة عديدة من العالم، وهو ما جعلهم يتوغّلون في السودان وفي غانا. واستغلّ الغانيون هذه العملة والبضاعة في الاستثراء وفي بناء السلطة، بحيث إن اللقب الآخر للغانا كان «**ماغام**» الذي كان يعني أنه ملك الذهب[١]. في القرن الثامن بدأت هذه العلاقات التجارية تزدهر مع توسُّع إصلاحات عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة الذي حفر سلسلة آبار سهّلت الوصول إلىٰ بلاد السودان. ومنذ القرن التاسع ستبدأ الإحالات إلىٰ بلاد السودان، ليس علىٰ أنها مقصد عسكري للفتح والسلب كما في تقارير البلاذري وابن عبد الحكم؛ وإنّما علىٰ أنها مقصدٌ تجاري. وتلازمت الإصلاحات في بناء الآبار التي قامت بها السلطة في سجلماسة مع إصلاحات طرقية أيضًا قامت بها رعايا آوكار الذين أقاموا المدن الصغيرة علىٰ حافة الأنهر والبحيرات والجداول المائية، وهو ما كان يضمن التواصل السريع؛ إذ كان نهر النيجر الأهم للتجارة والأسفار والتنقلات[٢].

وُجِدت المناجم الذهبية في عمق الأراضي الغانية، وليس في شمالِها، ومن هذا العمق اشتهرت مدينة كوغة، مدينة الذهب. وسرعان ما استقطبت المتاجرين المسلمين، الذين أشارت مصادر القرن العاشر إلىٰ حضور قوي لهم فيها[٣]. غير أن تفاصيل المعلومات عن المادة الصفراء ظلّت غامضة بالنسبة إلىٰ هؤلاء المسلمين، وكل ما عرفوه هو أن بلاد السودان مخزن هائل للذهب. ولقد أفسحت تخمينات المسلمين حول الذهب مجالًا خصبًا للأساطير. في القرن العاشر اعتقد ابن الفقيه الهمذاني (المتوفىٰ عام ٩٠٢م) أن الذهب في أرض غانا ينبت في الأرض كما ينبت الجزر، وأن السكان يقومون بقطفه «عند بزوغ

(1) Davidson, Lost Cities, 85.

(2) Williams. The Destruction of Black Civilization, 157.

(٣) البكري، ص ١٧٩.

الشمس»[1]. واعتبر المسعودي أن الذهب نبتة تنبت تحت الأرض[2]، وأن الذهب الغاني مستوٍ في تراب البلاد كالرمل، وأن التجار يتسلّلون إليه فيقومون خلسة بصقله بعد إشعال النار لصهره ثم يعودون به:

> ومملكة غانا وملكها أيضًا عظيم الشأن، ويتصل ببلاد معادن الذهب وبها منهم أمم عظيمة، ولهم خط لا يجاوزه من صدر إليهم فإذا وصلوا إلىٰ ذلك الخط جعلوا الأمتعة والأكسية عليه وانصرفوا، فيأتي أولئك السودان، ومعهم الذهب فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون، ويأتي أصحاب الأمتعة فإن أرضاهم وإلا عادوا ورجعوا فيعود السودان، فيزيدونهم حتىٰ تتمَّ المبايعة كما يفعل التجار الذين يبتاعون القرنفل من أهله سواء، وربما رجع التجار بعد زوالهم مختفين فوضعوا النيران في الأرض، فيسيل الذهب فيسرقه التجار ثم يهربون؛ لأن الأرض كلها ذهب عندهم ومعدن ظاهر، وربما فطنوا لهم فيخرجون في آثارهم، فإن أدركوهم قتلوهم[3].

ومن الأرجح أن هذه الإشاعات وصلت إلىٰ المسلمين عن طريق متنفذين في بلاد السودان، ربما جزءًا من استيراتيجية لتمييع المعلومات عن الذهب وتأمينه بالغموض. واستمرّت هذه القصص السحرية في أدب الرحلات الإسلامية طويلًا بحيث إن العمري -وهو جغرافي مهم (١٣٠١-١٣٤٩)- كان ما زال ينقل هذه القصص في القرن الرابع عشر كما حدّثَه بها أحد القادمين من بلاد السودان. فقد نقل له والي مصر أن مانسا موسىٰ (ح. ١٢٨٠- ح. ١٣٣٧م)، ملك بلاد مالي، أجابه، لدىٰ سؤاله له عن كيفية «نبات» الذهب، أنه:

> يوجد علىٰ نوعين: نوع في زمن الربيع عُقيب الأمطار ينبت في الصحراء وله ورق شبيه بالنجيل أصوله التبر، والنوع الآخر يوجد في جميع السنة في أماكن معروفة علىٰ ضفاف صحاري النيل، فيَحْفُر هناك حفائره فتوجد أصول الذهب كالحجارة والحصىٰ فيُؤخذ، وكلاهما هو المسمىٰ بالتبر،

---

(١) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٨٧.

(٢) المسعودي، أخبار الزمان، ص ٨٩.

(٣) نفسه، ص ٨٨-٨٩.

والأول أفحل في العيار وأفضل في القيمة(١).

كما نقل العمري أن وفرة الذهب ارتبطت بكفر سكان الأرض التي ينمو بها؛ ولذا لم يرغب المسلمون في فتحها، بل تركوها للكفار ليبقىٰ الذهب ناميًا بها(٢). وقد ذهب البعض حتىٰ إلىٰ الاعتقاد بأن الذهب كان يُستخرج من أعشاش حشرات كبيرة من النمل، النملة الواحدة منها في حجم قطة(٣). ولم يكن العرب بدعًا في أساطير الذهب فقد اعتبر الأوروبيون أن **إل دورادو** هو ثروة ذهبية متحرِّكة، كما آمنوا -مثلهم مثل العرب- بعلم الخيمياء الذي يمكن به تحويل الحجر إلىٰ ذهب. وبعد العرب بخمسة قرون كان الأوروبيون يبحثون عن الذهب في كل العالم من إفريقيا إلىٰ الأمريكيتين اللتين بحثوا فيهما عن «**إل دورادو**» أو **المدائن الذهبية السبعة** بِسيبولا.

وعلىٰ العموم، فقد كان الغانيون يتكتّمون جدًا علىٰ الذهب وعلىٰ أسرار الحصول عليه بحيث إنهم كانوا يرفضون الحديث مع التجار المُشتَرين عند بيعه. لقد ذكر المسعودىٰ أن البيوع والتبادلات مع التجار القادمين من الشمال كانت تتمُّ في صمت طقوسي عجيب، فكان التجار القوافليون يَقْدِمون ببضائعهم إلىٰ خط معروف فيهبّ لهم الغانيون وعندئذ يقوم القوافليون بنشر بضائعهم التي يقترحون مقايضَتَها بالذهب، ويمضون بعيدًا فيقدم ملاك الذهب ويقومون -في حالة رضوا بالبضائع المقدمة لهم- بأخذ البضائع ويتركون مكانها الذهب، ويمضون لحالِ سبيلِهم. أما في حالة عدم رضاهم، فإنهم كانوا ينسحبون ويتركون التجار يقدمون عرضًا آخر؛ وهكذا حتىٰ يحدث التراضي(٤).

ويمكن القول إن ثقافات استخراج الذهب تنوّعت. ولقد قدّم الإدريسي والحموي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر معلومات مهمة، وإن كانت

---

(١) العمري، ج٤ ص ١١٨.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ج٤ ص ١٠٩-١١٠.

(3) Levis H Gann, Peter Duigan, *Africa and the World: An Introduction to the History of Sub Sahar,*. Maryland: university press of America, 2000, p, 203.

(4) Susan Keech McIntosh, " A Reconsideration of Wangara /Palolus, Island of Gold," *The Journal of African History*, Vol. 22, No. 2(1981), pp. 145-158.

تبسيطية، في تفاصيلها. ويبدو منها أن سكان ونقارة (ونغارا) كانوا ينتظرون موسمًا طويلًا من فيضان النهر بدءًا من شهر أغسطس الذي يأتي بالنهر فائضًا فينتظرونه حتىٰ ينحسر، فيدلفون إلىٰ المناطق التي غمرها وحفرها وجرفها تلقائيًا فيلتقطون الذهب الذي انكشف بهذه الصفة الطبيعية، «فيجد كل إنسان منهم في بحثه هنالك ما أعطاه الله سبحانه كثيرًا أو قليلًا من التبر، وما يخيب منهم أحد، فإذا عاد النيل إلىٰ حدِّه باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضًا، واشترىٰ أكثره أهل ورقلان وأهل المغرب الأقصىٰ»(١).

والبديهي أن العمل البشري لاستخراج الذهب من وانغارا لم يكن جهدًا بسيطًا، كما توحي بذلك إشارة الإدريسي، وإن أدرك شيئًا من حقيقة الذهب؛ ذلك أنّه كان موضع صناعة استخراجية معقّدة معتمدة علىٰ الطمي أو التزايد التدريجي بالحفر: ينزل المنقبون في الأرض يواصلون حفرها بشكلٍ مضنٍ حتىٰ يصلوا إلىٰ مسام الذهب في القاع. وربما كانت عجائب هذه المهنة هي التي غذّت الأساطير حول غرائب التحصّل علىٰ الذهب. وما نعرِفه أن المناجم الوانغارية كانت غارقة في حمّىٰ الذهب في الشرق أيضًا في بلدة لوبي، التي دأبَ فيها الاستخراجيون علىٰ الانخراط في عمليات حفر مُضنية واصلوها بنقل الذهب عن طريق القوافل إلىٰ المغرب ثم إلىٰ الأندلس والشرق الأوسط.

إلاّ أن ونقارة كانت تفوق أخواتها من المدن، وكانت عاصمة الذهب ومأوىٰ المناجم الوافرة، وكانت وفرة الذهب بها مشاهدة علىٰ عوامها المتجمّلين به أبدًا وفي كلِّ مكانٍ. ولقد جعلها الطلبُ علىٰ الذهب تشهد أهم العمليات التنقيبية والاستخراجية في العالم في ذلك الحين(٢). في القرن الثاني عشر عندما خصّص الإدريسي وقتًا للحديث عنها كانت استفادة تجارها بائنة، فقد أصبحت مدنهم -وخصوصًا غانة ومداسة وونقارة وملل- في قمة ازدهارها، وكانت تمورُ بالأغنياء الذين كانت تقدُم إليهم البضائع من مختلف أنحاء العالم(٣). وسمح هذا لشرائح

(١) الإدريسي، وصف إفريقيا، ص ١١.

(2) by Levis H Gann & Peter Duigan. Africa and the World: an introduction to the history of sub sahara. Maryland: university press of America, 2000, p, 203

(٣) الإدريسي، وصف إفريقيا، ص ٨-١١.

كبيرة منهم أن تبني مساكن من الحجارة بدلًا من أكواخ القصب الضعيفة[1].

ولعل غموض موقع ونقارة كان يفسِّرُ الخوف علىٰ ثرائها، فقد تعذر علىٰ الكشافة العرب تحديد مكانها. ولم يتضِّح موقعها إلا بالدراسات الحديثة التي أظهرت أن الذهب كان موضع عمليات تنقيب في بامبوك الواقعة قرب جنوب نهر السنغال ومنطقة بور قرب نهر النيجر من ناحية غينيا. وعثرت الحفريات علىٰ أعمدة منجمية في تلك المناطق جعلت بعض الباحثين يعتقدون أن بامبوك وبورىٰ هي وانغارا، وإن كان الأمر ليس موضع إجماع من الحفريين[2]؛ إذ اقترح بعض الباحثين أنها كانت في دلتا النيجر[3]. وتذهب دراسات حفرية أخرىٰ إلىٰ الاعتقاد أن الذهب كان يُجلب من جنوب الأراضي الغانية من المنطقة الواقعة بين السنغال العليا وأنهار فالام، والجارية بين جنوب السنغال وشمال غينيا إلىٰ الشرق باتجاه مالي، وعند نقطة التقاء النيجر العليا بتنكيسيو (وسط غينيا الحالية)[4]. وبالإضافة إلىٰ قيمتها كمصدر للثروات، فإن هذه المناطق كانت مهمَّة من الناحية اللوجستية؛ إذ كانت تقع علىٰ الممرات المائية التي كان الذّهبُ يُنقل من خلالها عبر القوارب. وبقرب هذه المواقع تكثّفَ حضور التجار البربر القادمين من الشمال، كما كان حال تجار كوغة الذين ذكرهم البكري أو أولئك الذين تحدّثَ عنهم العمري في شمال بلاد مالي[5]. وعلىٰ العموم، فقد كانوا يشحنون الذهب بعد الحصول عليه علىٰ القوافل الإبلية إلىٰ الشمال[6].

❀ ❀ ❀

تنقل الأساطير السونينكية حكايات مثيرة عن سقوط الإمبراطورية وبحسب هذه الحكاوي فإن الأمر تعلّق بخذلان البشر للسماء؛ فلقد تعاقد ديابي سيسي عندما

---

(1) Michael Moissey and E. Miller. Eds. Trade and industry in the middle Ages, 468.

(2) McKissack and McKissack, 24-25.

(٣) المسعودي، أخبار الزمان، ص ٨٨.

(4) Levis H Gann and Peter Duigan. Africa and the World: an introduction to the history of sub sahara. Maryland: university press of America, 2000, p, 203

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ج٤ ص ١١٠.

(6) Levis H Gann and Peter Duigan. Africa and the World, 203

وصل إلىٰ كومبي صالح مع حية عملاقة تدعىٰ «**بيدا**» لها خصائص إلهية، وهي حية بسبعة رؤوس استنجدَ بها الملك السونينكي المؤسس عندما أعيته هزيمته من قبل أخيه، وتوصّل لاتفاق معها أنها ستنتصر له مقابل أن يمنحها قربانًا عبارة عن جارية جميلة كل عام. وكان الأمر. وأصبح الغانيون يقدِّمون قرابين سنوية للبيدا، إلىٰ أن جاء اليوم المشؤوم عندما وقعَ دور القربان علىٰ جارية جميلة تصادف أن فتًىٰ من نبلاء السونينكي يواعدها. هذا الفتىٰ كان جسورًا وكان متيّمًا بصديقته، فقرر الحيلولة دون تقديمها قربانًا للحية الإلهية وانتظر حتىٰ برزت لالتقاط قربانها، فأشهر سيفه وجزّ أحد رؤوسها بضربة بتارة. وحسب الأسطورة، فقد صعدت الحية إلىٰ السماء مُنذرة بريح سموم علىٰ القرية التي أيقن أهلها بالهلاك واندفعوا في أعقاب النبيل السونينكي الذي فرّ وقامت والدته بتقديم الطعام للسكان الثائرين بغرض تهدئتهم. ولكن المحتوم حصل. وهبّت ريح سموم فقضت علىٰ الحضارة.

ولعلّ هذه القصة رمزية في إبراز تعاقد السونينكي مع الأغراب القادرين علىٰ الإضرار. وربما كانت الثعابين ترمز للأعداء من الشعوب البدوية التي كانت تهاجم المدن المانديغية، كما أن الملحمة تشير إلىٰ دور الكوارث الطبيعية في إنهاء الحضارة. وفي الحقيقة، فإن الحفريات أثبتت تراكم هذين السببين في إنهاء الإمبراطورية. في أيام البكري بدأت تطوّرات مهمة تحدث في الشمال، فقد بدأ البربر الصنهاجيون يتوّحدون في ظل إمارة جديدة يقودها رجل مسلم يدعىٰ أبا عبد الله محمد بن تيفاوت، الشهير بتارشني. وحَّدَ هذا الرجل الصنهاجيين الذين عاشوا قبل أكثر من قرن في القلاقل خلف سلطة لمتونة. وقام بتنظيم هجمات علىٰ الجنوب وأراد فرض الإسلام عليه، ويبدو أن الجيش السوداني تصدّىٰ له واستطاع قتله. غير أن تصاعد قوة الصنهاجيين سيجعلهم متفوقين جدًا علىٰ سكان الجنوب، بحيث إن التقاليد التاريخية ستتحدّث عن فتحهم وتدميرهم لإمبراطورية غانا. ومن المؤكّد أنّهم انتزعوا منها أوداغست، إحدىٰ أهمّ المدن التي وقعَ عليها -وإن وجيزًا- نفوذهم.